القدّيس يوحنّا الدمشقيّ



الهرطقة المئة

ملاحظة:

١- توقيت هذه الترجمة ليس معرقِلاً للحوار الحاليّ كما قد يعتقد البعض وليس حجّةً للدّخول في صراعات دينيّة كما قد يودّ آخَرون، بل هو فرصة لهؤلاء للعدول النهائيّ عن الصراع ولأولئك للتقدّم الحقيقي في الحوار، وذلك لكيما نبحثَ جميعنا من الآن فصاعداً عن المحبّة التي في المسيح، والتي لا ترتضي البتّة بالصراعات العدوانيّة التي لا تسرّ الله، كما ولا تقبل باستمرار حوار المداهَنة والمجامَلة والمراوَغة على حساب حقيقتها التي تبقى هي وحدها الدواءَ الشافي للجميع وإنْ كانت جارحةً في نزاهة صدقها.

٢- لقد صدر نصّ هذا الكتاب باللغات اليونانيّة والألمانيّة والفرنسيّة، وغيرها ربّما؛ فلا شيء يمنع بالتالي من أن يُنقل إلى العربيّة للاستفادة منه بحسب المبادئ التي نوّهنا إليها خلَل طيّات الكتاب عموماً وفي المقدّمة خصوصاً.

٣- لا تصدروا حكماً سريعاً على هذه الترجمة قبل أن تتمعّنوا جيّداً بمكنونات الكتاب التي لا ترجو سوى البنيان، صدّقتم ذلك أم لم تصدّقوا.

٤- عنوان الكتاب لم نختره نحن بل هكذا عُرف في أصله اليونانيّ (أنظر ح٣٧، ص٣٧).

✠

صاحبُ الجهل الإختياريّ لا حُجَّة له في خطيئته.. وكذلك المرشِد المتهاون بواجباته يستحقّ أشدَّ اللّومِ ويُحكَم عليه كقاتلٍ لأنه يقتل نفوس الناس بسكوته وعدم تنبيهه. فالصَّديق الحقيقيّ هو من يؤدِّب ويوبِّخ على الخطيئة لا مَن يصمت عنها؛ لأنّ من يصمت يُحسب بمنزلة من يَدَع السمَّ في باطنِ من لَسَعته حيّة ولا يُخرجُه منه. ومن كان كذلك فهو الذي يهدم المحبّة.

(القدّيس باسيليوس الكبير)

لعبادته الحسنة في العالم وشهوداً لمدح حَمْدِهِ السَّنيِّ إلى أقاصي الأرض، وحتّى مجيئه الثاني الذي سيحضر هو فيه بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات، هو الذي لم يزل "حقّاً" محرِّراً و"حياةً" مُحيية و"طريقاً" وحيداً إلى الله الآب.

وما اعترفنا به لِتونّا معروفٌ على أنّه كُفْر وإشراك في الدّين بالنسبة إلى المسلمين الذين لا يمكنهم أن يفقهوا هذه الحقائقَ الإلهيّة والذين لا يستطيعون استيعابَها في أذهان قلوبهم، وذلك لأنّ أذهانهم منهمِكةٌ وحسْبُ بأعمالٍ ناموسيّةٍ لا تبرِّر الإنسان[1]، ولأنّ قلوبَهم مهجورةٌ من الثالوث القدّوس عِلّةِ استنارة الإنسان وتأليهه. ولهذا السبب عينه، علينا أن نساعدهم بحميّة ليعرفوا المخلِّصَ فينا فيتبرّروا ويخلُصوا ويتقدّسوا ويتألّهوا- على غِرار ما أُنعِم به علينا وما نحن مدعوّون إليه- إذا ما التزموا هم أيضاً به معنا في رعيّته الواحدة. ومن هنا واجبُ اليقظةِ الروحيّةِ الأصيلةِ الذي تقتضيه شهادتُنا للمسيح تجاههم في سيرةٍ فاضلةٍ أمينةٍ ترسم أمامهم صورةَ الربّ بصفاءٍ وتجمع معه بأمانةٍ لوصيّة التبشير به المُلقاةِ على عاتقِنا؛ وعندئذٍ تبقى المسألةُ منوطةً بقَبولهم الحرِّ لنعمة الربّ الذي "ما من أحدٍ يقدر أن يأتي إليه ما لم يجتذبْه الآبُ أوّلاً"[2]، والذي لا يأتي أحدٌ إلى الآب إلاّ

---

(١) أنظر غلا٢:١٦.

(٢) يو٦:٤٤.

به[٣]، والذي هو وحده قادرٌ على خلاصهم وخلاص الجميع بالطريقة التي تتماشى وتدبيرَ مشيئته القدّوسة في مسيرة كلّ إنسان.

وعلى هذا، ينبغي أن نميِّز الآن بوضوحٍ ما بين الإسلام والمسلمين. فالإسلام، أو الدِّين الإسلاميّ، هو الذي ينتقده قدّيسُنا. وأمّا المسلمون فإخوةٌ لنا مات المسيح من أجلهم أيضاً، ونحن مُلزَمون- من أجل المسيح- بأن نحبّهم إلى الغاية حتّى ولو لم نَجْنِ منهم سوى الاضطهاد، لا بل لأنّهم يضطهدوننا بضروبٍ متنوّعة. فالتلميذ ليس أفضلَ من المعلّم ولا العبد أفضل من سيّده[٤]؛ ونعلم من جهة أخرى أنّ "الله قد برهن على محبّته لنا بأنْ مات المسيحُ عنّا ونحن بعدُ خطأة"[٥]! فكم ينبغي علينا إذاً أن نحبّهم؟

أجل، إنّها لَنعمةٌ جزيلةُ القَدْر مَنَّ بها الله علينا نحن المسيحيّين في شرقنا العربيّ، إذ نحن مُحاطون بمن أوصانا الربّ بأن نحبَّهم عندما يضطهدوننا، وأن نُحسِن إليهم عندما يبغضوننا، وأن نباركهم عندما يلعنوننا وأن نصلّي من أجلهم عندما يفتَرون علينا[٦]. نحن لا نخشى

---

(٣) يو١٤: ٦.

(٤) متى١٠: ٢٤.

(٥) رو٥: ٨.

(٦) أنظر لو٦: ٢٧-٢٨.

عقيدتهم، لأنّ "كلّ غرسةٍ لم يَغرسْها الآبُ السماويُّ تُقلَع"[٧]، كما أنّنا لا نخاف منهم لأنّ "المحبّة الكاملة تطرد الخوف خارجاً"[٨]- **والمحبّةُ لا تبدو مَحبّةً إلاّ إذا طالت الأعداءَ أنفسَهم بنيرانِها المقدّسة.**

وبما أنّ نظرة المسلمين إلينا لم تتغيّر منذ نشأتهم وحتى اليوم، فلا ينبغي التفتيش من ثمّ عن نقاطِ تلاقٍ معهم على المستوى العقائديّ، بل على المستوى الأخلاقيّ الاجتماعيّ حيث يُتّفق على السلوكِ بالمعروف وعلى تجنُّبِ المُنكَر عند كلّ الخيِّرين من الناس. ومن العَبَث بمكانٍ أن نسترسل في الجَدَل معهم حول إيمانَين مختلفين تماماً، إذ إنّ أركانَ إيمانِنا الأساسيّةَ (الثالوث- التجسّد- الفداء) منبوذةٌ عندهم. وحوارنا معهم بالتالي سيكون ذاك الحوارَ الحياتيَّ الذي يترجِم هذا الإيمانَ إلى بساطة الحياة الإنجيليّة معهم ومع سواهم، هذه الحياة التي تنظر إلى الواقع بنور المسيح وتُضفي على العلاقات نفحةَ معرفتِه وتُبرز في الأحداث وجهَ حقيقتِه متجلّياً بالرحمة اللاّمتناهية والمحبّة التي لاحدود لها. وهذا لا يتطلّب بالضرورة نقاشاً في الدِّين وفي العقيدة، بل صمْتاً مُفعَماً من قوّة الصلاة، و"ما يصلح من الكلام

---

(٧) متى ١٥:١٣.

(٨) ١يو٤:١٨.

ويُفيد البُنيانَ- إذا دَعَت الحاجةُ- ليؤتيَ السامعين نعمة"[٩].

وأعتقد أنّ ما يربو على ألفٍ وأربعِمئةِ سنة من العيش المشترَك هي زمنٌ كافٍ ووافٍ ليعرفَ كلٌّ واحدٍ منّا ما يفكّر به الآخرُ على الصعيد العقائديّ النظريّ العامّ؛ ومتابعة الحوار من جهتهم تكون إمّا للاستزادة في المعرفة من ثمّ وإمّا لمجرّد الاستفزاز ليس إلاّ.. في الحالة الأولى نحن مدعوّون إلى إظهار وجه يسوع أمامهم بشكلٍ عمليّ، هو الذي "يرغبون في رؤيته"[١٠] الآن أكثر من أي وقت مضى بعدما سمعوا عنه الكثير ووَدُّوا التقرُّبَ منه؛ وهذا ما يمكن تمييزه، إذ إنّ الله الذي أوحى إلى ذاك المسلم بهذه الرغبة هو نفسُه الذي يوحي إلينا بكيفيّة تَلْبِيتها. وأمّا في الحالة الثانية، فموقفنا ينبغي أن يكون موقفَ يسوعَ نفسِه القائل: "أنتم تعبدون ما لا تعلمون ونحن نعبد ما نعلم"[١١]، وأيضاً: "إنّا ننطق بما نعلم ونشهد بما رأينا، ولا تقبلون شهادتنا. إذا قلت لكم الأرضيّاتِ ولا تصدِّقون، فكيف تصدِّقون إنْ قلت لكم السماويّات"[١٢]؟

---

(٩) أف ٤:٢٩.

(١٠) أنظر يو ١٢:٢١.

(١١) يو ٤:٢٢.

(١٢) يو ٣:١١-١٢.

وإنّ عدمَ احترامِ عقيدةٍ ما يطالُ المعتقِدَ بها أيضاً. هكذا يفكّر أغلبُ الناس، ومنهم المسلمون أنفسُهم. وأمّا نحن المسيحيّين، فإذا ما استهزأنا بالضلال، فهذا لا يعني على الإطلاق بأنّا نستهزئ بالضالّ، ولا سيّما إذا ما كان يدّعي أنّه هو وحده على حقٍّ في ما يعتَقدُه. فاحترامنا للمسلم يتحقّق بمعزل عن ذهنيّته وعقيدته، ولا نعاملُه البتّة بالمِثْل؛ وذلك لأنّنا حريصون أشدّ الحِرص على خلاصِه باهتدائه إلى المخلّص فينا. والمخلّص قد أتى "لينادي للمأسورين بالتَخْلِية وللعميان بالبصر ويُطلِقَ المرهَقين أحراراً"[١٣]. لقد جاء إلى العالم، هو النور، لكي لا يمكثَ في الظلامِ كلُّ من يؤمنُ به"[١٤]؛ وأوصانا قائلاً: "فليُضئ نورُكم قدّام الناس ليَرَوا أعمالكم الصالحة ويُمجّدوا أباكم الذي في السماوات"[١٥]؛ أي نوره هو فينا، هذا "النور الذي يضيء في الظلمةِ، والظلمةُ لا تُدرِكُه"[١٦]، لأنّه يُبدّدها ويُزيل سَطوَتها بضياء معرفته، هو "صورة الله غير المنظور"[١٧]، وضياءُ مجده وضابطُ كلّ شيء بكلمة

---

(١٣) لو ٤: ١٨.

(١٤) يو ١٢: ٤٦.

(١٥) متى ٥: ١٦.

(١٦) يو ١: ٥.

(١٧) كو ١: ١٥.

قدرته[18]، والوسيطُ بين الله والناس[19]، والذي يَحِلُّ فيه كلُّ مِلئ اللاهوت جسديّاً[20]، والذي يريد أنّ جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحقّ يَبلغون[21].

والمسلمون يعرفون بأنّ الله واحد؛ ولكنّهم يشوّهون هذه الوحدة برفضهم فيها سرَّ الثالوثِ الواحدِ الفائقِ الجوهر، وبالتالي "يصرفون سَمْعَهم عن الحقّ ويَعدِلون إلى الخرافات"[22]. ولا عجب في ذلك، فإنّ من يُصابُ بضعفٍ أو انحرافٍ أو التباسٍ في نظرته إلى الله، ينحسِر بصرُه العقليُّ حتماً عن مكنونات التدبير الإلهيّ في الكون، ويمضي مُتلمِّساً من يُرشده سواءَ السبيل، اللّهم إذا ما أحسّ هو بعَجْزه ورغب في تقويم سيرته وسعى بإخلاصٍ متواضعٍ إلى الخروج من أغلال تعصُّبه بُغية التوصُّل إلى المعرفة الكاملة وإلى كمال المعرفة في الربّ يسوع الذي "ما من أحدٍ يستطيع أن يقول إنّه ربٌّ إلاّ بالروح القدس"[23]، هذا الروح الذي يمنحه

---

(١٨) عب ١:٣.

(١٩) ١تيم ٢:٥.

(٢٠) كو ٢:٩.

(٢١) ١تيم ٢:٤.

(٢٢) ٢تيم ٤:٤.

(٢٣) ١كور ١٢:٣.

الآبُ السماويُّ لمن يسأله[٢٤].

ويقول الربّ: "إن شئت أن تكون كاملاً، فاذهب وبِعْ ما لك، وأعطِه للمعوزين، فيكون لك كنز في السماوات، ثمّ تعالَ اتبعني"[٢٥]. **وهذا يعني أنّ الكمال لا يُقتنى إلاّ باتّباع المعلّم الأوحد الذي وإنْ قرأ المسلمُ الكثيرَ عنه، يبقى الأهمُّ من ذلك أن يفهم ما يقرأ، وهذا لا يُستطاع إنْ لم يُرشِدْه أحد[٢٦]؛ وهذه هي مهمّة المسيحيّين الحقيقيّين.** أمّا إذا قام هؤلاء برسالتهم وبقي المسلمُ غَير مُصدِّق، فهذا يعني أنّه ليس من خراف يسوع، لأنّ "خرافَه تسمع صوتَه، هو يعرفها وهي تتبعه"[٢٧]، ولأن الإيمان ليس للجميع[٢٨]، ولأنْ "ليس أحدٌ يعرف الابنَ إلاّ الآبُ ولا أحد يعرف الآبَ إلاّ الابنُ ومن يريد الابنُ أن يكشف له"[٢٩]. وعندها حسبُنا أن نقتدي بابنِ الله الحبيب هذا الذي "لا يخاصِم ولا يصيح ولا يسمع أحدٌ صوتَه في الساحات العامّة. لا يكسر القصبة المرضوضة ولا يُطفئ الفتيلة المدخّنة، إلى أن يقود الحقَّ إلى

---

(٢٤) لو ١١:١٣.

(٢٥) متى ١٩:٢١.

(٢٦) أنظر أع ٨:٣٠-٣١.

(٢٧) أنظر يو ١٠:٢٦-٢٧.

(٢٨) ٢تسا ٣:٢.

(٢٩) متى ١١:٢٧.

الغَلَبة"[٣٠] بالصليب! فلنتشبّثْ إذاً بسلاح الجهاد المقدّس هذا ولا نُفلِتْه مهما قيل لنا "فلْينزِلِ الآن عن الصليب لنرى ونؤمن"[٣١]، وذلك لأنّه مرساةُ المخلّصين ومعتَقَلُ الحريّةِ الذي به يقودنا السيّدُ إلى الفوز بمعرفته في سموّ جوهره وواقعيّة تجسّده ومجّانيّة محبّته المبذولةِ لأجل حياة العالم. فعليه نحيا في معرفتنا ليسوع الذي قال: "إذا ما رفعتم ابنَ البشر فعندئذٍ تعرفون أنّي أنا هو"[٣٢]- والحياةُ الأبديّة هي أن نعرفه[٣٣]-، وبه نتحرّر في اتّحادنا بالمسيح الذي قال: "إنْ حرّركم الابنُ كنتم في الحقيقةِ أحراراً"[٣٤]، ومنه نستقي الروحَ الذي يُعلّمنا كيف نكون عُبّادَ اللهِ حقّاً "بالرّوح والحق"[٣٥]، والذي يَعضُد ضعفَنا[٣٦] لنُحسِنَ أداءَ "الشهادة الحقيقيّة" للنّاهضِ من بين الأموات لمجد الله الآب.

ويتّضح لنا بالتّالي أنّ الحوار الذي نحن مدعوّون إليه اليومَ خصوصاً

---

(٣٠) متى ١٢:١٩-٢٠.

(٣١) مر ١٥:٣٢.

(٣٢) يو ٨:٢٨.

(٣٣) أنظر يو١٧:٣.

(٣٤) يو ٨:٣٦.

(٣٥) يو ٤:٢٤

(٣٦) رو ٨:٢٦.

ليس حواراً جَدَليّاً لمجرّدِ الجَدَل من جهتنا، بل هو حوار المحبّة الراسخة في استعداداتها، تلك المحبّة الإلهيّة المتجسِّدة فينا بالتزامنا بالمسيح، والتي لا تستطيع ألاّ تكشف المخلّص بروح الوداعة لمُحبّي الخلاص، والتي " لا تطرح جواهرها قدّام الخنازير"[٣٧]، أي أنّها لا تستسلمُ لشهواتِ الأحاديثِ الجوفاءِ التي تغذّي المشاجراتِ والخصوماتِ والتجاديفَ والظنونَ السيئةَ والمنازَعاتِ الباطلة[٣٨]؛ وذلك لئلاّ يجدَّف على اسم الله وعلى التعليم[٣٩]، ولئلاّ نُعوِّق إنجيل المسيح بشيء[٤٠].

نعم، يعتقد المسلمون بقرآن مُنزَل كما يدّعون؛ أمّا نحن فنعترف بإله متجسِّد- وإيمانُنا هذا هو الذي غلب العالم[٤١]-، لأنّنا متيقّنون من أنّ الله لا يَسكن في مصنوعات الأيدي[٤٢]، بل في هيكله الذي صنعه هو لنفسه، ولأنّنا لم نتبع خرافات مُصنَّعة[٤٣]، بل ما سمعناه وما رأيناه بأعيننا

---

(٣٧) متى ٧:٦.

(٣٨) أنظر ١تيم٦: ٤-٥ و٢تيم٣: ٩.

(٣٩) ١تيم ٦:١.

(٤٠) ١كور ٩:١٢.

(٤١) أنظر ١يو٥:٤.

(٤٢) أع ١٧:٢٤.

(٤٣) ٢بط١:١٦.

وما تأمّلناه وما لمسته أيدينا في شأن كلمة الحياة[٤٤]. إذاً، المقارنة ليست بين كتابٍ وكتابٍ آخر بل بالأحرى بين كتابٍ وشخصٍ حيٍ تحدَّث عنه الأنبياء في العهد القديم ويتحدَّث عنه الرسلُ في بُشرى العهد الجديد بوحي الروح القدس، **وهذا ما يجعل المقارنةَ مستحيلةً في النطاق العقائديّ. ولكنّ هذا لا يُلغي حوارَ المحبّة "التي تفوق كلَّ إدراك"[٤٥]، بل يتطلّب اللّجاجة فيها- ولو بصمتٍ أحياناً لأنّ الجميع لم يُؤتَوا موهبةَ التكلّم في مِثل هذه الأمور، بيد أنّنا جميعاً قادرون على المحبّة بالذي أحبّنا-** لأنّها "الطريق المُثلى"[٤٦] التي علّمنا إيّاها الربُّ نفسُه والتي نحن مُلزَمون بانتهاجها تجاه جميع الناس وليس فقط المسلمين؛ وذلك بحَسَب ما أوتينا من مواهب لخدمتها، وحتى لو قاسَينا مخاطرَ الاضطهاداتِ ومعاكسةَ الإتّهاماتِ الكاذبةِ من جرَّائها. فإنّنا عارفون بمن آمنّا[٤٧]، **وينبغي أن يعرف العالمُ أنّنا نحبّ الآبَ وأنّنا نعمل بما أوصانا الآبُ**[٤٨] في ابنهِ الوحيدِ الذي تبنّانا به لنكونَ أبناءً له بالروح القدس الواحد في "بيته الذي هو

---

(٤٤) ١يو١:١.

(٤٥) أف٣:١٩.

(٤٦) ١كور١٢:٣١.

(٤٧) أنظر ٢تيم١:١٢.

(٤٨) يو١٤:٣١.

كنيسةُ اللهِ الحيّ، عمودُ الحقّ وقاعدتُه"(٤٩).

وهذا ما فَعَلَه القدّيس يوحنّا الدمشقيّ الذي تأسّس على صخرة إيمانه بالمسيح، فلم يستطِع من ثمّ ألاّ يَصُدَّ أمواجَ المَزاعم التي حاولت وتحاول النَّيلَ من المَنارة الوحيدة- أي الكنيسة- التي بناها اللهُ مُتوطّئةً بحرَ هذا العالم "لِيَنتزعَ الناسَ من سلطان الظلمة وينقلَهم- باختيارهم- إلى ملكوت ابنه الحبيب"(٥٠). وسوف نَستشفُّ في دفاعه هذا، علاوةً على إيمانه الوطيد، خبرةً موضوعيّةً للإسلام والمسلمين كما سنرى لِتونّا في فصلٍ تمهيديٍّ يَضَعنا في جو الأحداث التي رافقت مؤلّفَنا القدّيسَ في هذا المِضمار ويُسَهِّل علينا الاطّلاع على تفكيره وكتاباته في هذا الشأن. وبما أنّه قدّيس، فهذا يعني أنّ من يسمع منه- والآن أيضاً- فقد سمع من الربّ(٥١) المستريح في القدّيسين، إذ إنّه لا يسعى في نَصَّيهِ الآتيين(٥٢) إلاّ إلى مساعدتنا في تحديد كُنْهِ الإسلامِ وفي الإجابة الصحيحة على انتقادات المسلمين إذا ما سألونا.

---

(٤٩) ١تيم٣:١٥.

(٥٠) كو١:١٣.

(٥١) أنظر لو١٠:١٦.

(٥٢) عُرِّب هذان النصّان مع ما سبقهما من معلومات عن كتاب:
Jean DAMASCENE- **Ecrits sur l'Islam**-coll. Sources Chrétiennes, nº 383- cerf,1992.

وينبغي على هذه الإجابة أن تُبنى على معرفةٍ عميقةٍ للربّ يسوع وللإيمان الذي من عنده حتى تكونَ صحيحةً وتؤدّي رسالتها بغَيرةٍ مُحِبَّةٍ للسيّد ودأبٍ يضع كلّ رجائه عليه، وخصوصاً بحرارة الإيمان الممتلئ من الروح القدس الذي يضع الأمور في نصابها ويُحرق المعتقداتِ الباطلةَ المشحونةَ بالتناقضات المتطرِّفة ليقود أصحابَها- بالمحبّةِ السلاميّةِ التي في المسيح- إلى صِراط الإلهِ الحقّ الديّانِ الرحْمانِ الذي به يليق كلُّ حَمْدٍ وحُبٍّ ومجدٍ، ومنه يُنهَلُ كلُّ عونٍ واهتداءٍ ونعمةٍ، وله تجب العبادةُ المستقيمةُ الساجدةُ لوحدتِه في أقانيمه الثلاثة إلى أبد الدهور. آمين! تعال أيّها الربّ يسوع[٥٣]!

بعون الله

(المعرِّب)



(٥٣) رؤ ٢٢: ٢٠.

القدّيس يوحنّا الدمشقيّ

١-سيرته

أ- المصادر:

عديدةٌ هي السِيَر القديمة المتعلّقة بيوحنّا، ولكنّ السيرة الأهمّ في ما بينها قد وُضعت باللغة العربيّة(١) في القرن التاسع بدون شك، ثمّ نقلها إلى اليونانيّة يوحنّا بطريرك أورشليم. وهذه هي الترجمة الموجودة في مجموعة "الآباء اليونان" (Migne) بمثابة مقدّمة لمؤلّفات الدمشقيّ(٢). كما توجد روايات أخرى أكثر إيجازاً تعود إلى القرنين الحادي عشر والثالث عشر، وهي تابعة للسيرة العربيّة وتعطينا القليل من المعلومات الأصليّة بشأن سيرة يوحنّا. هذا وإنّ كلّ هذه السِيَر تنتسب إلى فنّ سِيَر القدّيسين. فإنْ لم يكن واجباً إهمالها، فمن الضرورة بمكانٍ أن تُستعمل بحرص وأنّ يُميّز ما يتأتّى

(١) وضعها الراهب ميخائيل السمعانيّ الأنطاكيّ الذي لم يؤلّف سوى المقدّمة منها كما يبدو، وذلك بين عامي ٨٠٨ و٨٦٩.

(٢) cf. Migne, Patrologie Greque (=P.G) 94, c. 429-490

فيها من التاريخ وما يتسرّب إليها من الأسطورة ولو بدا رائعاً.

وثمّة معلومات إضافيّة عن يوحنّا وعائلته ومحيطه قد نقلها كاتبو الحوليّات باللغتين اليونانيّة والسريانيّة. أمّا الأخيرون فكانوا على مذهب اليعاقبة[٣] وقد اتخذوا موقفاً معادياً لعائلة الدمشقيّ، في حين أنّ الكتّاب اليونان كانوا مؤيّدين لتحطيم الإيقونات ولم يسعوا من ثمّ إلى إخفاء كراهيتهم إزاء يوحنّا عدوّهم العنيد؛ ومن الموافق إذاً أن تقابَل شهاداتهم بكثير من الحرص. أمّا المؤرّخون العرب فقد وصفوا فتح دمشق وتحدّثوا عن الحياة في سوريا على عهد الأمويّين؛ وقد نقلوا إلينا، هم أيضاً، معلومات هامّة عن الحقبة التي عاش فيها يوحنّا وعائلته.

وعلى الرغم من وفرة الوثائق، نرى أنفسنا عاجزين عن التحديد الدقيق للأحداث الكبرى التي رافقت مؤلّفنا؛ فتاريخ ولادته ليس معروفاً تماماً، وكذلك تاريخ وفاته، والسنة التي مضى فيها إلى دير القدّيس سابا، ويوم رسامته. ومع ذلك، يمكننا أن نشكّل من جديدٍ المراحل الكبرى في حياة يوحنّا وأن نعطيها في مُجملها وصفاً مُطابِقاً كفايةً للحقيقة التاريخيّة.

---

(٣) اليعاقبة هم تبّاع يعقوب البرادعي السوري الذي عمل بنجاح لصالح المونوفيزيّة (القول بالطبيعة الواحدة في المسيح) في القرن السادس.

ب– عائلة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ:

وُلد يوحنّا في كنف عائلة من الموظّفين الكبار المكلّفين بجمع الضرائب لحساب الإمبراطور البيزنطيّ. وعلى غرار غالبيّة السكّان في هذه المقاطعة، كانت عائلته من أصل سوريّ دونما شك. ولكن إذا ما كان السكّان في أكثريّتهم يتكلّمون باللغة الآراميّة ويتبعون المعتقد اليعقوبي، فإنّ خِيرة المدن الكبرى التي كان منها أهلُ يوحنّا، كانت متأثّرة بالحضارة اليونانيّة ومتعلّقة جدّاً بالأرثوذكسيّة الخلقيدونيّة[٤].

منصور ابن سرجون، وهو جَدّ يوحنّا، كان يشغل منصب جابٍ لمدينة دمشق وكلّ المنطقة. وعندما غزا الفرس سوريا في سنة ٦١٠، واصل تأدية الدور عينه في خدمة الملك الساساني. وبعد انتصار هرقليوس النهائي سنة ٦٢٨، حافظ منصور على منصبه، لكنّ الإمبراطور البيزنطيّ جعله يدفع غالياً ثمن مجاملته للغازي الفارسيّ وغرّمه بشدّة. وقد حفظ منصور في ذلك حقداً عميقاً، وهذه المُعاكَسة التي كان هو ضحيّتها يمكنها من ثمّ أن تفسّر موقفه عند استيلاء المسلمين على دمشق. ففي الواقع، لعب جدّ يوحنّا

(٤) نسبةً إلى المجمع المسكوني الرابع المنعقد في خلقيدونية سنة ٤٥١، والذي فُنّدت فيه آراء نسطوريوس وإفتيخيس القسطنطينيّين وأُعلنت العقيدة المعروفة منذ فجر المسيحيّة عند كلّ مؤمن بالمسيح، والتي مفادها أنّ المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين، إلهيّة وإنسانيّة.

دوراً هامّاً في هذا الحدث كما يبدو، ولكن لا يمكننا التأكيد على أنه سلّم المدينة بالخيانة[5]. ومع ذلك فالتقليد البيزنطيّ قد اعتبر هذا الشخص لمدّة طويلة على أنّه خائن[6]. ويؤكّد إفتيخيوس أن منصور قد طالب عند استسلام المدينة بحياته وحصل عليها سالمةً، وكذلك حياة عائلته وجميع السكان باستثناء الروم، أي البيزنطيّين.

ومن عادة المسلمين عندما يحتلّون بلداً ما أن يحافظوا على البُنى الإداريّة المحليّة ويحجزوا الموظّفين الأكِفّاء. وهكذا حافظ منصور على مَنصِبه مرّة أخرى، فواصل جَبي الضرائب لهذا الرئيس الجديد كما فعل آنفاً تجاه البيزنطيّين والفرس[7]. وفي غياب المسؤولين الدينيّين الذين فرّوا إلى أنطاكية

---

(٥) لم يتّفق الكتّاب بشأن سقوط دمشق وكذلك بشأن الشخص الذي تسبّب في ذلك. فبعضهم يقولون إنّه منصور، وآخرون يميلون إلى أسقف المدينة في ذلك الحين- كما حصل عند فتح أورشليم على عهد البطريرك القدّيس صفرونيوس، الذي عمد إلى التفاوض مع المسلمين حول مصير المسيحيين في هذه المدينة حرصاً منه على إنقاذ الوضع لصالح المؤمنين.

(٦) كتب البلاذُريّ في كتابه فتوح البلدان- وهو مؤرّخ مسلم في القرن السابع- أن الأسقف هو الذي فتح أبواب المدينة. وفي مقطع آخر تحدّث عن صديق للأسقف. أمّا إفتيخيوس (وهو بطريرك الإسكندريّة الملكيّ في القرن العاشر) فيؤكّد بأن ذلك كان من صنع ابن سرجون المسمّى منصوراً.

(٧) هذه الضريبة كانت تتكوّن من الجِزية التي تُضاف إليها ضريبة عقاريّة تدعى الخَراج. وكانت مفروضةً على المسيحيّين بدلاً من الحماية الممنوحة لهم، وكانت تطابق نوعاً ما ما كان يأخذه

مُحتمَلٍ البتّة، ما لم نقلْ عنه إنّه مستحيل، وإلاّ كان ابنه يوحنّا مسلماً هو أيضاً وكانت عودته إلى الإيمان المسيحيّ جحوداً، وهذه جريمة عقابها الموت في الشرع الإسلامي. صحيح أنّ سرجون كان مولىً ليزيد وأنّ منصوراً كان مولىً لمعاوية، وأنّ الاندماج بالجماعة الإسلاميّة المحافِظة على بنيتها القبائليّة حتّى ذلك الحين كان يستلزم اتّباع قبيلة عربيّة[11]، إلاّ أنّ هذا اللقب (مَولى) كان من الممكن أن يُطبّق أيضاً على إنسانٍ ما من البلد غيرِ مهتدٍ بالنسبة إليهم، على مسيحيّ مثلاً. وبالتالي لا يمكن استخدامه دليلاً على تحوّل عائلة يوحنّا إلى الإسلام. لا سيّما وأنّ كاتب السيرة العربيّة يعظّم إيمان سرجون، في حين أن ثيوفانيس[12] يصفه "برجُل مسيحيّ جداً"، وهذا ما لم يكن متعارضاً مع المهمّة المؤدّاة لدى الخليفة في ذلك العصر[13].

إنّ ماضي هذه الأسرة والبراهين العديدة التي أعطتها عن أمانتها

---

(11) حتى القرن الثامن، لم يكن مسموحاً لغير العرب بالاندماج في الجماعة الإسلاميّة. وكان على المهتدين أوّلاً أن يتّصلوا بشخص مسلم بحيث يصبحون مَوالي له ويتشرّبون من ثمّ الطابع العربيّ الإسلاميّ.

(12) هو كاتب حوليّات في القرن السابع.

(13) عند زوال حظوته، كان سرجون على مسيحيّته كما يذكر مؤرّخ مسلم هو مؤلّف كتاب الموارد.

للكنيسة(١٤) تجعلنا نؤكّد بأنّ "السرجونيّين" ولو كانوا مساهمين غيورين وفعّالين في السلطة الإسلاميّة، إلاّ أنّهم كانوا مدافعين حارّين عن الإيمان المسيحيّ. وإذا ما ترعرع القدّيس يوحنّا الدمشقيّ في محيطٍ مميّزٍ إذ كان أهله الأغنياء والمقتدرون يعيشون في أُلفة مع "أمير المؤمنين"، إلاّ أنّه تمكّن رغم كلّ شيء من إيجاد القدوة للتعلّق العميق بهذا الإيمان في كنف عائلته.

ج- فتوّة يوحنّا في دمشق:

لا تعطينا السِيَرُ أيّةَ معلومات محدَّدة عن تاريخ ولادته، بَيد أنّ معظم المؤلّفين المعاصرين يتّفقون على القول بأنّها قد حصلت حوالى سنة ٦٧٥. والتأكيد الوحيد الذي لدينا هو أنّ طفولة يوحنّا وفتوّته قد جرت أحداثُهما في دمشق حين كانت عائلته تتمتّع بكامل حُظوتها وحين كانت على علاقة وطيدة مع الخليفة ومحيطه.

وتتوسّع كلّ الروايات عن سيرة يوحنّا في شأن ثقافته وتعلّق عليها أهمّية كبرى. فالسيرة المجهولة الكاتب تروي لنا أنّ أباه حاول أن يأتيه

---

(١٤) إنّ اثنين من أولاد أخت يوحنّا قد انضمّا إليه في لافرا القدّيس سابا. كما خرّجت هذه العائلة بطريركين لكنيسة أورشليم، هما سرجيوس الأوّل (٨٤٢-٨٥٦) والياس الثالث (٨٧٩-٩٠٧).

براهبٍ من صقلية يدعى قزما ليكون مربّياً له منذ الثانية عشرة من عمره[١٥]. وهي تحدّد أيضاً السبب: "حتى لا يدرس فقط في كتب السارّيين"؛ وكلمة ساريّ ينبغي أخذها هنا بمعنى عربيّ وليس بمعنى مسلم[١٦]. وخارجاً عن المجال الدينيّ الصِّرف بالمقابل، ما من شيء كان يمنعه من الاستفادة من تعلّم اللغة العربيّة نظير غالبيّة الأولاد الذين في سنّه والمنتسبين إلى الطبقة الاجتماعيّة عينها، أكانوا مسلمين أم لا[١٧]. كما وأنّ التدرّج الأدبيّ في اللغة كان يرتكز أساساً على دراسة الشعراء. والحال أنّ الأخطل شاعر الأمويّين كان يتردّد إلى منزل عائلة يوحنّا؛ وبفضل هذا الاحتكاك المتواصل بأحد اكبر الشعراء في ذلك العصر، لا يمكننا الاعتقاد من ثمّ بأنّ اللغة العربيّة كانت غريبة بالنسبة إليه[١٨].

---

(١٥) كان هذا الراهب من أصل كريتي، أي أنّه كان يونانيّاً، وكان يعرف بالتالي علوم الخطابة والفيزياء والحساب والهندسة والموسيقى والفلك واللاهوت.

(١٦) كان الخليفة الثاني عمر يطلب إلى الأسرى السوريّين الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يعلّموهما للمسلمين. والمسلمون أيضاً كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتّاب العرب الذين من أهل البلد، فكانوا يتلقّون عنهم القراءة والكتابة مع الأولاد العرب المسيحيّين كما يُروى. أمّا بشأن كلمة ساريّ فانظر المرطقة المئة، رقم١.

(١٧) كان يعرف أيضاً اللغة الآراميّة التي كانت لغة الشعب في ذلك الحين والتي لا تزال مَحكيّة في بعض القرى المجاورة لدمشق، كمعلولا مثلاً.

(١٨) سأل الخليفة عبدُ الملك الأخطلَ يوماً من أين أتيت. فأجابه: "كنت عند ابن سرجون أمين

وقد تلقى يوحنّا تنشئة يونانيّة كلاسيكيّة متينة، كما تؤكّد ذلك المراجع العديدة للفلاسفة القدماء الذين أذاعوا صيت مؤلّفاته. زِد على أنّ هذه التربية اليونانيّة التقليديّة كانت مطلوبةً ليستطيع تأدية المهامّ التي سيُعهد بها إليه.

ودخل يوحنّا في مُعترك الحياة في العشرين من عمره تقريباً، عند نهاية عهد عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥)[١٩]؛ وخلَف أباه أوّلاً دونما شك. فقد استُبدل سرجون آنذاك بأحد المسلمين في شؤون الدولة الماليّة والحربيّة[٢٠]، وهذا ما لا يعني طبعاً عزله عن الحياة الإجتماعيّة. كما أنّ تيّار التعريب لم يسبّب مشكلة لعائلته[٢١] إذ تثقّف جميع أعضائها على اللغة العربيّة. ومن جهة أخرى، نلاحظ أن القرار الذي اتُّخذ على عهد وليد

سرّك". فهتف ذاك قائلاً: "آه! إنّك تعرف الأماكن الموافِقة" (عن كتاب الأغاني لأبي فرج الأصبهاني).

(١٩) في عهد عبد الملك، بدأ إقلاق المسيحيّين جدّيّاً.

(٢٠) يُروى أن سرجون ابن منصور المسيحيّ قد مثَل في ديوان الشام على عهد عبد الملك بن مروان. فأصدر الخليفة إليه أمراً فعصاه، وعندئذٍ فصله عبد الملك ووضع مكانه محمّداً بن يزيد الأنصاريّ.

(٢١) كان عبد الملك يعرّب الإدارة في سوريا، لكنّه كان يُبقي الرجال الأكفاء في مواقعهم، أي المسيحيّين.

الأوّل (٧٠٥-٧١٥) بإقصاء جميع المسيحيّين عن العمل الاجتماعي لم يكن سوى قرار مؤقت. فالمرسوم لم يكُن في الإمكان تطبيقه، لا سيّما وأنّ المسلمين كانوا متأكّدين بعدُ من عدم استطاعتهم تحمّل مثل هذه المسؤوليّات.

وقلّما يمكننا التحديد الدقيق للمهمّة التي كان يشغلها يوحنّا عندما خلف أباه؛ ولكنّ ما يبدو هو انّه كان "أمين سرٍّ لأمير المدينة"، أي رئيساً للإدارة الماليّة الحَضَريّة كما يؤكّد بعض كتّاب سيرته. ويمكننا الاعتقاد بأنّه كان يشغل على الأقلّ مهمّة جابٍ تجاه المسيحيّين، تلك المهمّة التي تولّتها عائلته تقليديّاً، وأنّه كان يجمع من ثمّ الضرائب المتوجّبة على المسيحيّين في إقليم دمشق[٢٢]. ولكن المقصود هنا أيضاً هو دور أكثر أهميّة، وذلك لأنّ المسيحيّين الملكيّين- واليعاقبة أيضاً- كانوا يشكّلون الغالبيّة الساحقة من السكان على الدوام، وكان تدبير المنطقة مرتكزاً عليهم. إذاً، وجد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ نفسَه على اتّصال بحاشية الخليفة وكان يحظى بمعاشرة شخصيّات الحكْم البارزة في إطار صلاحيّاته. وكانت هذه العلاقات تتجاوز

---

(٢٢) يشبّه المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) القدّيسَ يوحنّا الدمشقي بمتّى الرسول، إذ كان جابياً للضرائب على غراره ثمّ ترك كلّ شيء ليتبع المسيح.

المجال المهنيّ الصِّرف حتماً، لاسيّما وأنّه استطاع مواصلة الحفاظ على أواصر الصداقة مع زُمَلاء فتوّته القدماء.

وقد سمح مثلُ هذا الوضع ليوحنّا بأن يصبح مراقِباً مفضّلاً للصراعات السياسيّة والدينيّة التي كانت تشقّ الجماعة الإسلاميّة، وأن يتكلّم بحرّية كاملة مع أصدقائه بشأن هذه المسائل. والحال أن الحروب الكلاميّة الأولى بين مُشايعي قدرة الله الكلّية وأولئك الذين كانوا يؤكّدون بأنّ الإنسان حر[٢٣] قد برزت في مطلع القرن الثامن. ومن المحتمل أن المناقشات بين المسيحيّين والمسلمين قد حملت هؤلاء الأخيرين على بعض التساؤلات في الوقت الذي كان فيه الوعي الدينيّ الإسلاميّ مرتبِكاً بسياق العصر السياسيّ. وليس من قبيل الصدفة إذاً أن يخصّص يوحنّا نصف "المناقشة بين مسلم ومسيحيّ" لمسألة حرّية الاختيار.

---

(٢٣) لقد اعتُبر الخلفاء الأمويّون مسلمين أردياء، ما خلا عمر الثاني. فإذا ما كانوا يلبثون في الحكم، فهذا يعني أن الله هو الذي أراد ذلك؛ والطاعة للخلفاء مهما فعلوا، هي من ثمّ استسلام لإرادة الله. تلك كانت العقيدة الرسميّة. أمّا المعارِضون فكانوا يعتقدون بأنّ الإنسان مسؤول عن أعماله وكانوا يعتبرون هؤلاء الخلفاء خطأة غير قادرين على الاضطلاع بمهمّتهم في خلافة محمّد.

وعلى عهد الخليفة التقيّ عمر الثاني (٧١٧-٧٢٠) أصبحت الحياة أكثر صعوبة بالنسبة الى المسيحيّين: فالتدابير الجائرة قد وُضعت موضع التنفيذ، وطالت لائحة الشهداء، وأخيراً الإقصاء النهائي لغير المسلمين عن المهامّ الإداريّة. وهذا الإجراء الأخير قد سبّب ارتداد مسيحيّين عديدين كانوا يرغبون في الحفاظ على وظيفتهم[٢٤]. أمّا يوحنّا فقد اختار ما هو مخالِف لذلك، إذ تنكّر للكرامات والثروات وفضّل ترك مدينة حداثته ليسعى في الطريق المؤدّية إلى دير القدّيس سابا.

د- يوحنّا الراهب في دير القدّيس سابا:

تاريخ انطلاقه إلى هناك غير معروف، إلاّ أنّه ترك دمشق إبّان عهد الخليفة عمر الثاني دونما شكّ في ذلك. إذاً، التحق يوحنّا بالدير خلال سنة ٧٢٠ على أبعد تقدير، وكان عمره يناهز الأربعين سنة تقريباً. أمّا دير القدّيس سابا الواقعُ في وادٍ قريبٍ من أورشليم، فكان مركزاً روحيّاً وفكريّاً بارزاً؛ وإذ كان مقرّاً للفكر الملكيّ القويم، لمع من ثمّ في مطلع القرن الثامن هذا بأبهى لمعانه. هذا ولو كان يوجد فيه رهبان يتكلّمون اللغة السريانيّة

---

(٢٤) تلك كانت المرّة العلنيّة الأولى التي يشجّع فيها خليفةٌ مسلم على اعتناق الدين الإسلاميّ من مسيحيّين غير عرب.

والأرمنيّة، إلاّ انّ الدير قد أُضفي عليه الطابَع الهلّيني؛ فاللغة اليونانيّة لم تُستبدل بعدُ باللغة العربيّة كلغةٍ ثقافيّةٍ وليتورجيّة، حتى ولو كانت هذه الأخيرة مستعمَلةً على نطاق واسع في الحياة الاعتياديّة[٢٥].

وفي سنة ٧٠٦ عثرت الكنيسة الملكيّة من جديدٍ على رئيسها الروحيّ، إذ تبوّأ البطريرك يوحنّا الخامس السُّدّةَ الأورشليميّة الشاغرة منذ ستّين سنة. ورَسم البطريركُ الجديدُ القدّيسَ يوحنّا الدمشقيّ كاهناً، فأصبح لاهوتيَّه واستُدرج من ثمّ إلى كتابة مقالات نقديّة ضدّ الهرطقات المختلفة، ولا سيّما هرطقة محطّمي الإيقونات[٢٦]. وهكذا أنشأ ثلاثة خطابات ضدّ هؤلاء مُحرَّكاً بِهَمِّ الدفاع عن الحقيقة. وقد كان ذلك موقفاً شجاعاً، لأنّ الدين الإسلاميّ كما نعلم، كان يعارض كلّ تمثيل صُوَريّ، حتى أنّ إجراءات قد اتُّخذت في هذا الشأن من أجل احترام هذه النقطة من

---

(٢٥) عند نهاية القرن الثامن تطوّر الوضع وأنشأ رهبان هذا الدير سِيَر القدّيسين باللغة العربيّة (وربما للانعتاق قليلاً من الرقابة البيزنطيّة).

(٢٦) كانت الكنيسة الملكيّة في منجىً من سلطة الامبراطور القضائيّة. وانطلاقاً من هذا الواقع، كان جميع أعضائها أحراراً في الدفاع عن الطروحات غير المدعومة رسميّاً من القسطنطينيّة.

العقيدة[٢٧]. وقد سبّبت هذه الخطاباتُ الثلاثة المتعلّقة بالدفاع عن الإيقونات الحكْمَ عليه، لا من قبل المسلمين، بل من قِبل المجمع المحارب الإيقونات الملتئم سنة ٧٥٤ في هييريا، والذي قال: "ملعون هو منصور[٢٨] الذي اسمه شؤم والذي يجاهر بآراء محمّديّة! ملعون هو منصور الذي خان المسيح! ملعون هو عدوّ الامبراطوريّة ومعلّم الزندقة ومكرِّم الصُوَر[٢٩]!". وبالحسّ النقديّ نفسه، سيكتب يوحنّا مؤلّفات نقديّة ضدّ الإسلام، ولكن باللغة اليونانيّة، فكانت صعبةَ الإدراك بالتالي عند المسلمين. وهذا المسعى الخطِر لم يمنعْه من بلوغ أيّامه الأخيرة بسلام، في حين أنّ استفانوس الثالث بطريرك أنطاكية الجديد وبطرس أسقف مايوما وبطرس متروبوليت دمشق قد عُذّبوا بشدّة في الحقبة عينها، إذ قُطع لسان أحدهم ونُفُوا لأجل كرازتهم ضدّ الإسلام بالرجوع إلى عقيدة محمّد؛ وقد تلقّنوا ذلك ربّما من القدّيس يوحنّا الدمشقيّ نفسه[٣٠].

---

(٢٧) يُروى أنّ يزيد الثاني (٧٢٠-٧٢٤) قد أصدر مرسوماً محارِباً للإيقونات. فهل استوحاه من الامبراطور لاون الثالث الإيصوريّ المحارِب لها آنذاك؟

(٢٨) كونه البكر فقد اتّخذ اسم جدّه حسب العادة الشرقيّة.

(٢٩) لقد حوّل قسطنطين كوبرونيمس المحاربُ الإيقونات اسمَ منصور (أي منتصر) إلى كلمة مانزير (Μανζήρ) اليونانيّة، والتي تعني ابن الزنا.

(٣٠) يُروى أن بطرس الدمشقيّ كان صديقاً للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ. وقد قُطع لسانه لتكلّمه ضدّ

وقد توفي يوحنّا قبل عام ٧٥٤[٣١]، وبعد أربع سنوات من سقوط السلالة الأمويّة التي ارتبط بها اسمه واسم عائلته في التاريخ. وكان "السرجونيّون" في طليعة من اتّخذ المبادرة للتعاون مع الحكّام الجُدُد، وتبعهم في ذلك مسيحيّون عديدون حافظوا على هذا التقليد في إنشاء صِلاتٍ جيّدةٍ بالمسلمين في العواصم المتتالية للإمبراطوريّة الإسلاميّة[٣٢]. ولكن، علاوةً

الإسلام، ثمّ مات سنة ٧٤٢ فرثاه يوحنّا.

(٣١) لقد ألّف كتاب ينبوع المعرفة بناءً على طلب قزما أخيه بالتبنّي، حين كان هذا الأخير أسقفاً على مايوما، أي بعد سنة ٧٤٣. ومن جهة أخرى، أعلن مجمع هييريا الملتئم سنة ٧٥٤ أنّ "الثالوث قد انتزع الثلاثة"، قاصداً بهم الأعداء الثلاثة لمعتقده؛ وهذا يعني أنّ يوحنّا كان قد توفّي آنفاً وأنّ وفاته يمكن حصرها بالتالي بين عامي ٧٤٣ و٧٥٤، ولو وُجدت بعض الآراء المعارضة لهذا الطرح استناداً إلى سيرة استفانوس السابويّ ابن أخت يوحنّا، والذي يُروى أنّه وصل إلى دير القدّيس سابا سنة ٧٣٤ بصحبة خاله ومكث معه ١٥ سنة، ممّا يحمل على الاعتقاد بأنّ وفاة يوحنّا حصلت سنة ٧٤٩. إلاّ أنّ البعض يشكّون بأنّ استفانوس السابويّ واستفانوس ابن أخت يوحنّا كانا شخصاً واحداً.

(٣٢) لقد حلّت بغداد التي اسّستها السلالة العبّاسيّة محلّ دمشق كعاصمة للإمبراطوريّة الإسلاميّة. وكان النساطرة، ولقرونٍ عدّة، يلعبون فيها الدور الذي لعبه المسيحيّون الملكيّون في دمشق، حتى أنّهم توصّلوا إلى بلوغ بعض الوظائف التي كانت محظورةً على المسيحيّين حتى ذلك الحين، كما حصل مثلاً أيّام المعتمِد (٨٧٠-٨٩٠) إذ تولّى أحدُ المسيحيّين مهمّة إعادة تنظيم الجيش وقيادته.

على دوره السياسيّ، حفظ لنا التاريخ أخيراً الدّور الذي أدّاه يوحنّا في بَلْوَرة الفكر المسيحيّ أكثر فأكثر. ولا عجب من ثمّ إذا ما دعاه التقليد البيزنطيّ "بالمعلّم المحنّك" نظراً لأهمّية ما تركه من مؤلّفات أصيلة.

٢- مؤلّفاته

إنّ مؤلّفات القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، أقلّه ما قد وصل إلينا منها، تعود بكاملها إلى المرحلة الثانية من حياته، أي أثناء إقامته في دير القدّيس سابا. وقد كتب باليونانيّة التي كانت اللغة الثقافية والليتورجيّة في الكنيسة الملكيّة في ذلك العصر، إذ لم يعمَّم التعريب بشكل نهائي إلاّ في نهاية القرن الثامن. ولكنّ بعضاً من كاتبي السِيَر يؤكّدون بأنّ مؤلّفنا قد كتب باللغة العربيّة مؤلّفاتٍ مفقودةً حاليّاً. وهذا ممكن لأنّ يوحنّا كان يُجيد هذه اللغة، ولكن مثل هذا المشروع لا يبدو قادراً على تلبية حاجات قارئيه وسامعيه. وبما أنّ المسلمين كانوا يجهلون اليونانيّة، فأنْ يُعبِّر عن فكرته بهذه اللغة كان يسهِّل عليه تفصيل هذه الفكرة بأمانٍ تامٍّ ودونما خوف من العقوبات المتوقّعة من قِبل السلطات. هذا وكان من الأسهل عليه أن يشرح مفاهيم فلسفيّة وتحديدات لاهوتيّة باليونانيّة أكثر ممّا بالعربيّة التي كانت مفرداتها هزيلةً في هذا المجال. ومن المؤكّد بالمقابل أنّ عدّة كتابات له قد تُرجمت إلى

العربيّة باكراً من أجل حاجات السكّان المختلفة. وكذلك ثيوذورس أبو قرّة[٣٣] الذي كان يصرّح بأنّه تلميذه مؤكّداً بأنّه ينقل تعليماً اقتبله بالصوت الحيّ، قد عمل هو أيضاً بدأبٍ على نشر فكر مؤلّفنا عبر كتابات أُنشئت بالعربيّة والسريانيّة كما باليونانيّة. زد على أنّ بعضاً من مؤلّفات يوحنّا لم تصِلنا إلاّ في ترجمتها العربيّة[٣٤].

وبين كتاباته الجدليّة نجد تلك المناقشة التي يجيب فيها أحدُ المسيحيّين على الاعتراضات المقدّمة من أحد المسلمين، ومحاولة الإجابة هذه على الإنتقادات المَصُوغة من قِبل المؤمنين المسلمين إنّما هي واحدة من المحاولات الأولى في هذا المضمار[٣٥]. وبالتالي كانت تلك الكتاباتُ الجدليّةُ

---

(٣٣) هو أسقف ملكيّ على حاران، ولد نحو سنة ٧٥٠ في الرها. فلا يمكنه من ثمّ أن يكون تلميذاً مباشَراً لقدّيسنا نظراً إلى تاريخ ولادته. وقد أمضى قسماً من شبابه في بغداد على ما يبدو، ممّا يفسّر معرفته للإسلام وللّغة العربيّة. ثمّ نجده راهباً في دير القدّيس سابا. وفي سنة ٧٩٣ صار أسقفاً على حاران التي كان معظم سكّانها مونوفيزيّين، إلاّ أنّها بقيت مع ذلك مركزاً شهيراً للثقافة اليونانيّة والوثنيّة. وبعد أن أقاله البطريركُ الأنطاكيّ ثيوذوريتس عن كرسيّه الأسقفيّ، عاد إلى دير القدّيس سابا، ثم راح يجادل كتابةً كلاًّ من الأرمن والأقباط ويناقش اليعاقبة والنساطرة، والمسلمين أيضاً في بغداد كما يبدو؛ وقد توفّي بعد سنة ٨٢٥.

(٣٤) كما حصل خصوصاً في "عرض الإيمان الحقيقي وشرحه"، الذي كتبه بمناسبة رسامته الكهنوتيّة.

(٣٥) يبدو أنّه سُبق على ذلك في هذا المجال. ففي سنة ٦٤٣ مثلاً، دخل البطريرك الإسكندري

ضدّ الإسلام عادةً جاريةً في الكنيسة البيزنطيّة. وقد انتهج اللاهوتيّون اللاتين النهجَ عينه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

أمّا عمله المتفوّق فيُدعى "ينبوع المعرفة"، وهذا هو الكتاب الذي أذاع صيت الدمشقيّ الذي أنشأه سنة ٧٤٣[٣٦]. وهذه المحاولة الأولى لتنظيم المعارف المتعلّقة بالإيمان المسيحيّ بشكل منطقيّ إنّما هي "خلاصة لاهوتيّة" حقيقيّة يرتكز فيها يوحنّا على فكر الآباء اليونان ليُعدَّ تأليف العقائد البارزة التي حدّدتها المجامع في القرون الغابرة، بشأن الله والعناية والوحي وشخص المسيح. وقد سبق هذا الإعدادَ مقدّمةٌ مزدوجة فلسفيّة وتاريخيّة. القسم الفلسفي تَعَنْون بالجدليّة، ويُختصر في الأصل بمجموعة من التحديدات التي توضح معنى بعض التعابير، مثلاً: طبيعة، شخص، أقنوم إلخ.. وهذا كان يقتضي حِيطةً بالغةً في الأهميّة، لا سيّما حين نعلم بأن اختلافاً بسيطاً حول المعنى الدقيق لكلمةٍ ما (ككلمة طبيعة Φύσις مثلاً) كان باستطاعته إنشاء خصوماتٍ داميةٍ بين المسيحيّين.

بنجامين في مناقشة مع عمرو بن العاص فاتح مصر كما يُروى.

(٣٦) ألّف الكتاب في الواقع على طلبٌ من قزما رفيقه في دير القدّيس سابا، والذي صار أسقفاً على مايوما سنة ٧٤٣ إثر استشهاد بطرس سَلَفه.

ثمّ تأتي المقدّمة التاريخيّة، أو "كتاب الهرطقات"(٣٧). ولم يكن طُموح يوحنّا أن يُعدّ تاريخاً للعقيدة ولا أن يصف تطوّر الفكر عند الآباء اليونان، بل قَبْل أن يعرض تفصيل الإيمان المسيحي، رأى أنّه من الإفادة بمكانٍ الإبلاغ عن الضلالات والمعتقدات الباطلة أوّلاً. وحتّى يصف الهرطقات الثمانين الأولى، ردّد النصّ الكامل الذي أنشأه إبيفانيوس بعنوان "باناريون"(٣٨). أمّا وصف الضلالات اللاحقة فقد اقتُبس هو أيضاً من مؤلّفين آخرين: فلِكَي يتحدّث عن بدعة المشيئة الواحدة مثلاً، استوحى ما قاله القدّيس صفرونيوس. ولكن، إذا ما كانت مساهمة يوحنّا الأصيلة تُختصر بالشيء القليل ها هنا، فكتاب الهرطقات له أهمّيّة بالغة بالنسبة إلينا، لأنّه يحتوي على النصّ اليونانيّ الأوّل للأدب المسيحيّ في ما يتعلّق بالتعريف عن الإسلام.

وأمّا "الإيمان الأرثوذكسيّ"، أي القسم الثالث من ينبوع المعرفة،

---

(٣٧) كلمة هرطقة هنا تؤخذ بمعناها الواسع؛ فهي تقصد رأياً قَبِلَه البعض دون الآخرين أو تياراً فكريّاً خاصّاً، وليس فقط خطأً عقائديّاً بحصر المعنى. هذا ما يقوله قدّيسنا في الفصل ٦٥ من القسم الفلسفي والذي أطلق عليه عنوان "تحديدات مختلفة". ولهذا نرى الفصول العشرين الأولى من هذا الكتاب تتحدّث عن اليهوديّة والوثنيّة اليونانيّة، وكذلك الفصل الأخير الذي يتعلّق بالإسلام.

(٣٨) أي علبة الأدوية، وقد دحض فيه القدّيس إبيفانيوس(+٤٠٣) ثمانين بدعة وهرطقة.

فهو الأكثر شهرة بين مؤلّفات القدّيس يوحنّا الدمشقيّ. ويقسم هذا الكتاب إلى مئة فصل؛ ولكنّ ترتيب هذه الفصول ومحتواها قد سوّغا تصنيفها في أربعة أبواب كبرى على غرار التقسيم الكلاسيكي للمقالات اللاهوتيّة في القرون الوسطى عند اللاتين، وأيضاً لكتب عِلم الكلام التي هي بيانات عقلانيّة قياسيّة ودفاعيّة للإيمان الإسلامي. والتصميم الحاليّ "للإيمان الأرثوذكسيّ" هو إذاً كالتالي: في الإله الواحد؛ في الخليقة؛ في تاريخ الخلاص (الخريستولوجيا)؛ مسائل متنوعة. إلاّ أنّه لَمشروعٌ خطِرٌ أن نستنتج من ذلك بأن يوحنّا أوحى بهذه الطريقة للاّهوتيّين اللاتين وللمفكّرين المسلمين. وعلى الأكثر، يمكننا التأكيد على أن مؤلّفات هؤلاء الكتّاب المختلفين لها تشابه شكليّ فقط مع كتاب "الإيمان الأرثوذكسي". وكونه أنجز خلاصةً لسبعة قرونٍ من الفكر المسيحيّ، فقد اعتُبر مؤلّفنا على أنّه سابق أو رائد لجميع من سيُنشئون عَرْضاً كاملاً لمعتقد الكنيسة من بعده. هذا وقد شقّ الدمشقيّ الطريق لكتّاب بيزنطيّين عديدين ليتركوا هم أيضاً مؤلّفات عن الإسلام، هو الذي كان في موقعه أفضلَ من أيّ أحدٍ آخرَ سواه ليضطلع بهذه المهمّة.

٣_ كتاباته عن الإسلام

كتابات قدّيسنا عن الإسلام تشكّل القليل القليل من مجموع مؤلّفاته، بحيث أنّنا لا نملك في هذا المضمار سوى نصّين قصيرين نسبياً وقد لا يتجاوزان العشرين صفحة. النصّ الأوّل هو مقطع من كتاب الهرطقات، وهو عبارة عن تعريف جدليّ أحياناً بمعتقد الإسلام يليه تفنيدُ بعض الإنتقادات الموجَّهة إلى المسيحيّين ودراسةٌ موجزةٌ لأربع سُوَرٍ من القرآن. أمّا المناقشة بين مسلم ومسيحيّ فتبدو بمثابة مُصنّف من الأجوبة على الحملات الكلاميّة التي تحاول النيل من المعتقد المسيحيّ في بعض النقاط.

ولكن، لِمَ هذا التقدير للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ بشأن موضوع يبدو لنا اليوم، وبعد أكثر من اثني عشر قرناً من زمن كتابته، على أنّه الموضوع الذي كان ينبغي أن يهمّ الكنيسةَ قبل سواه؟ من باب المقارنة، بذل مؤلّفنا قصارى جهده ليقاوم بدعة محاربي الإيقونات؛ أمّا الإسلام في الواقع، فعلى الرغم من قدرته السياسيّة والعسكريّة، لم يظهر بمثابة تهديدٍ مباشَرٍ للإيمان الأرثوذكسي. ولمّا كان التفكير اللاهوتيّ الإسلاميّ في ضعفه الأقصى إبّان النصف الأوّل من القرن الثامن، لم يكن للمفكّرين المسيحيّين ما يقلقون لأجله. فالقرآن كان معتبَراً على أنّه تجميع لقصصٍ كتابيّة نُقلت

وفُهمت بشكل سيّء، ولهذا كان الهزء به يكفي. طبعاً، موقف المسيحيّين سيتعدّل بعد بضع سنوات، عندما سيجدون بإزائهم علماء مسلمين قادرين تماماً على إجادة المنطق وعلى إعداد معتقَد متماسِك؛ وهذا ما لم يكن في عصر يوحنّا. ولكن، على الرغم من إيجازهما، هذان النصّان لهما أهمّية كبيرة لمعرفة الصِلات التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيّين في القرن الأوّل لاحتلال سوريا. فنحن أمام كتابات أولى من نوعها، والتي نرى فيها لاهوتيّاً يعيش في أرض إسلاميّة ويهتمّ بهذا الدين الجديد وبدراسة عقيدته في مسعىً جدليّ ودفاعيّ.

وقد أضْفَت شخصيّة يوحنّا عليهما أهمّيةً كبرى أيضاً. فالمؤلّف كان يعلم ما يتكلّم به، إذ لم يستقِ معلوماته عن الإسلام من الكتب. بل إنّ وضع عائلته الرسمي والصداقات الشخصيّة التي عقدها مع المسؤولين في الحكم هي التي سمحت له بأن يعرف هذا الدين، وكذلك النقاط الأساسيّة التي كانت تُنتقد في العقيدة المسيحيّة ممّن كانوا يحاولون إعداد "اللاهوت" الإسلاميّ في تبريرهم محتوى الكشف القرآني. وأيضاً سهّلت له معرفتُه باللغة العربيّة مناقشاتهِ مع أصدقائه في بلاط الخلافة بما فيها المواضيع الدينيّة. والحال أنّ في هذه الحقبة التي كان فيها يوحنّا قاطناً في دمشق، بدأ بعضٌ من مواطنيه المسلمين في التساؤل عن حرّية الاختيار وفي الجدال حول مسألة

إنشاء القرآن؛ وهذه المحاولات الأوّليّة هي التي ستصبح "لاهوتاً" جدليّاً عُرف بعِلم الكلام في القرن التالي. وإضافةً إلى معرفته الشخصيّة بالإسلام والمسلمين، هنالك الواقع الذي يؤكّد بأنّ يوحنّا كان لاهوتيّاً ذا عقيدةٍ ثابتةٍ والممثّلَ الأصيل للأرثوذكسيّة الخلقيدونيّة في مستهلّ القرن الثامن. وبالتالي، يُعَدُّ هذان النصّان بين أقدم الشهادات المعروفة لدى لاهوتيّ مسيحيّ بشأن الإسلام، وقد حرّرهما الشخص الأكثر كفوءاً في ذلك العصر، سواء في دقّة معلوماته أم في مدى معرفته.

أ- الإسلام:

لا يحمل النصّ عنواناً، بل يُدعى عادةً بالهرطقة الأولى بعد المئة للقدّيس يوحنّا الدمشقي. ويتكلّم يوحنّا فيه عن ديانة الإسماعيليّين، ولا يسمّيها ديانة الإسلام أبداً. لا بل إنّ كلمة مسلم لا يستعملها البتّة واضعاً مكانها كلمة ساريّ (نسبةً إلى سارة). فكلمتا إسلامْ ومسلم لم ينقلْهما الكتّاب البيزنطيّون إلى اليونانيّة إلاّ في حقبة لاحقة؛ ولكنّنا نعتقد بأنّ استعمالهما منطقيّ ها هنا، لأنّهما عُرِفَتا من ثمّ في اللغة المحكيّة ولأنّهما كلمتان موثوقتان للدّلالة على هذا الدين (الإسلام) وعلى تبّاعه (المسلمين).

في بعض الترجمات لكتاب الهرطقات (Lequien, Migne)، احتلّ الفصل المتعلّق بالإسلام المرتبة ١٠١ وتلته هرطقتان إحداهما بدعة محاربي الإيقونات، ثمّ خاتمة. أمّا في الترجمة التي استخدمناها (Kotter)، فهذا الفصل عينه يحمل الرقم ١٠٠ ويختم لائحة الهرطقات التي عدّدها يوحنّا. ويمكن تعليل هذا التقسيم إلى مئة فصل أو مئويّة بالعادة التي كانت مألوفةً في ذلك الزمان، ولا سيّما عند الكتّاب الروحيّين اليونان الذين كانوا يرَون في الرقم ١٠٠ رمزاً للكمال؛ وهذا هو مثلاً حال كتاب "الإيمان الأرثوذكسي" الذي أنشأه يوحنّا نفسه.. هذا ما يراه معظم الباحثين، كما تؤكّده أيضاً تلك الخاتمة الموجودة في طبعة "Lequien" والتي لا توجد عند "Kotter". وهكذا، يمكننا الاستنتاج بأن الهرطقات الثلاث بعد المئة إنّما هي مُضافة على الهرطقات المئة التي أنشأها يوحنّا والتي كان آخرها الإسلام.

هذا وإنّ كتاب ينبوع المعرفة، وبالتالي كتاب الهرطقات الذي يشكّل قسماً منه، يعود إلى أيام يوحنّا، إذ إنّه كُتب بعد سنة ٧٤٣ حين كان يوحنّا مناهزاً الخامسة والستّين من عمره وأكثر؛ ولا ننسَ أن مصادر معلوماته الوحيدةَ إنّما كانت معارفَه الشخصيّة التي حصل عليها في شبابه. والحال أنه ترك دمشق وكفّ عن الإتّصال المنتظم بأصدقائه المسلمين منذ ثلاثين سنة، وكانت ذكرياته بعيدةً ربّما، وهذا ما قد يفسّر عدم الدقّة

الكاملة في تقريره كما يبدو لنا عند الوهلة الأولى. وممّا لا شكّ فيه من جهة أخرى، أنّ نصّ القرآن لم يكن بعدُ مثبّتاً في حُلّته الحاليّة عند جميع المسلمين آنذاك(٣٩)، وكذلك مجموعة الأحاديث المتعلّقة بمحمّد لم تكن بعدُ مدوّنة(٤٠). إذاً، من الصعب علينا الحكْم بأنّ يوحنّا عرّف بالإسلام إنطلاقاً

---

(٣٩) في البداية، استظهر الصّحابة فحوى القرآن ونقلوه شفهيّاً. وعند اختفاء العديد من المقرّرين في المعارك، حصل أوّل تنقيح رسميّ له على عهد الخليفة أبي بكر(٦٣٢-٦٣٤). ولكنْ، كانت توجد أيضاً عدّة روايات موازية مع اختلافات عدّة في ما بينها؛ وقد تبنّت دمشق من جهتها قرآن عُبيّ ابن كعب. ثمّ سعى الخليفة عثمان إلى إنشاء نصّ موحّد يجمع كافّة المسلمين، وأرسل أربع نسخ منه إلى جهّات مختلفة منها مكّة ودمشق وأتلف الروايات الأخرى. بيد أنّ مشروعه قد اعتُرض عليه و لم يحقّق الإجماع المنشود. وفي الكوفة قُبلت نسخة ابن مسعود الذي رفض أن يخضع لأمر الخليفة عثمان وبقي نصّه مستعملاً في تلك المدينة، في حين ان مسلمي دمشق لبثوا أمناء لقرآن عُبيّ ابن كعب كما يبدو. وواقعيّ هو القول بأنّ أصل الإنشاء القرآني الحاليّ يعود إلى عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥) عن طريق الحجّاج حاكم العراق، ولكنّنا نعلم بأن اختلافات عدّة كانت لا تزال قائمةً ما بين نصّ عثمان ونصّ عُبيّ المستعمل في دمشق آنذاك: فترتيب السُوَر لم يكن هو نفسه وأسماؤها لا تتطابق دوماً، وكذلك عددها (١١٦ مقابل ١١٤)، إضافةً إلى وجود صَلاتَين في الثاني دون الأوّل. فانْ لا يذكر القدّيس يوحنّا الدمشقيّ الآيات القرآنيّة كما نعلمها الآن ليس من ثمّ بمستغرَب؛ إذ ينبغي الرجوع في هذا المضمار إلى نصّ عُبيّ الذي قُبل في دمشق دون سواه في زمنه- والذي كانت لا تزال بعض نسخه موجودةً في القرن العاشر- أو إلى التقاليد غير المكتوبة بعد.

(٤٠) الأحاديث هي توضيحات استُقيت من سيرة محمّد وكلماته لتفسير بعض المقاطع الغامضة في القرآن، وقد جُمعت منها آلاف التقاليد التي انتُقدت أصالتها بشدّة إلى أن حُفِظت تلك التي

من النصوص التي بين أيدينا اليوم، والتي تخوّلنا معرفة هذه الديانة من خلال كتبها.. كلّ هذه التوضيحات ضروريّة لأنّها تسمح لنا بأن لا نصدر حكْماً سريعاً على يوحنّا، وخصوصاً بأن لا نستنتج بأنّه كان رديء الإيمان أو أنّه لم يُحسن استقاء المعلومات عندما نلاحظ نحن بعض الغموض في تأكيداته أو شواهده.

فلم تكُن نيّة المؤلّف أن يقدّم لنا عرضاً كاملاً للإيمان الإسلاميّ أو أن يُعرِّف بهذه الديانة هادفاً إلى الاستزادة في معرفتها بغية التمكّن من إقامة حوار مع المسلمين كما يَسعى البعض في آيامنا. بل أُلِّف كتاب الهرطقات من وجهة نظر أخرى: ألا وهي مقاومة الأخطاء والمعتقدات الباطلة. وفي النصّ الذي نتكلّم بصدده، أي الهرطقة المئة، يُفنِّد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ الاعتقاداتِ والعاداتِ الإسلاميّةَ التي تتعارض واستقامةَ الرأي المسيحيّةَ وأخلاقَها. وقد أنجز ذلك بأسلوب خاصّ بآباء الكنيسة، أعني به اللجوء إلى التهكّم اللاذع. فَتَبَلْوُر العقيدة كان ما يزال يسبّب أزماتٍ عدّةً في الكنيسة آنذاك، وكانت الحاجة مُلحّة لِدَرْء كلّ المزاعم غير المستقيمة. ولم تكن واردةً فكرةُ

كانت تستند إلى مراجع موثوقة كما كانت الحال بالنسبة إلى القرآن. وفي القرن التاسع حُرِّرت ستّ مجموعات من هذه الأحاديث التي يشكّل مجموعها مع القرآن والسيرة ما يدعى بالسُّنّة.

التحاور إنطلاقاً ممّا يمكن التقارب فيه، وذلك لأنّ اهتمامات الكنيسة في ذلك الحين كانت تنصبّ على ما هو أهمّ من ذلك بكثير.

وإذا ما تفحّصنا محتوى الهرطقة المئة، نستنتج بأن بدايات الإسلام قد نُقِلت بأمانة ولو شعرنا بالميل إلى الحرب الكلاميّة فيها منذ السطور الأولى. وفيه يعطينا يوحنّا وصفاً دقيقاً للمسيح كما يعتقده الإسلام ودونما تحليل نقديّ. وهو يلفت انتباهنا بشدّة إلى رفضهم الإعتراف بيسوع على أنّه ابن الله مع أنه كلمة الله وعلى الرغم من ولادته البتوليّة كما يقول القرآن؛ **ويؤكّد هذا كلّه بأن يوحنّا كان يعرف جيداً تفاصيل موضوعه.** وكذلك بشأن الوحي، يستخدم الدمشقيّ معارفه عن ممارسة الشهادة في الشرع القرآنيّ لكي يبرهن بأن محمّداً كان خدّاعاً ولكي يُظهر للمسلمين بأنّهم سُذّج.

وأمّا بالنسبة إلى الإتّهامَين بالإشراك وبعبادة الوثن- واللذين ردّ عليهما قدّيسنا- فالثاني منهما ليس منسوباً للمسيحيّين في القرآن، لكنّه دليل على تلك الإتّهامات الشعبيّة التي توَجَّب على المسيحيّين أن يكافحوها في القرن الإسلاميّ الأوّل. ويشير يوحنّا إلى وجود نسخ مختلفة للنصّ القرآنيّ في ما يختصّ بموضوع واحد أحياناً، كما حصل معه مثلاً عندما قدّم روايتين اثنتين عن طابع التكريم للحجر الأسود في مكّة.

ويتابع المؤلّف نقده للإسلام انطلاقاً من النصّ القرآنـيّ، وطبعاً ممّا كان قد سمعه منه، إذ لم يكن مُسوَّغاً لغير المسلمين أن يطالعوا القرآن في حينه؛ هذا وينبغي الأخذ بعين الاعتبار أنّ النصّ الحاليّ لم يكن بعدُ مثبّتاً ومُعمَّماً إذا ما أردنا أن نقارن ما بين الطرفين. فالعناصر المجموعة بشأن المرأة إنّما هي مبعثَرة خَلَلَ كافّة السُوَر، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى الخريستولوجيا. ومع ذلك فالمضمون صحيح ولو لم تُنقل الآيات كما هي معروفة الآن، سواء دار الموضوع حول تشريع الزواج أم الطلاق، أو أيضاً قصّة زيد المتعلّقة بالزواج ثانيةً من النساء المطلّقات. أمّا قصّة "ناقة الله" فتطرح بالمقابل عدّة مشاكل، لاسيّما وأنّها غير موجودة في نصّ القرآن الحاليّ كما عرضها يوحنّا. فهل وُجدت هذه الرواية المختلفة في إحدى النسخ الرائجة بدمشق في ذلك العصر؟ ولا يتوسّع المؤلّف في سورة المائدة التي تلتها، ويرتضي بأن يذكر سورة البقرة دونما كلامٍ عن مضمونها. وينهي يوحنّا نصّه بتعداده لبعض العادات أو الطقوس المعتَبَرة كميزاتٍ خارجيّةٍ للمنتسبين إلى الإسلام حتى أيّامنا، وكان هذا بمثابة وصفٍ لسلوك اجتماعيّ.

ب- مناقشة بين مسلم ومسيحي:

لا تصميم لهذه المناقشة ولا وحدة في الموضوع. فهي تتألّف من تسع حوارات متفاوتة في طولها. والأوّل بينها هو الأطول إذ يشكّل نصف النصّ ويشتمل على مواضيع عدّة بحيث أنّ كلّ ردّ من المسيحيّ يجرّ اعتراضاً جديداً من جهة المسلم.

ويدور مجمل النصّ حول موضوعين أساسيّين: موضوع حرّية الإنسان وعدالة الله من جهة (الحواران ١ و٨)، والذي يتناول من جديدٍ السؤال المطروح آنفاً بشأن الخليقة، وموضوع حقيقة المسيح وأمّه مريم بالتالي من جهة أخرى (الحوارات ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٩)، والذي نجد فيه نقاشاً حول كلمة الله. وهذان الموضوعان: حرّية الإنسان وكلمة الله المخلوق أم غير المخلوق، هما ما كان يتجادل حوله المفكّرون المسلمون الأوائل في دمشق كما في العراق.

وإذا ما كان محتوى هذا النصّ الثاني يختلف عن محتوى النصّ الأوّل، إلاّ أنّه يكمّله نوعاً ما حسب رأي البعض. فالكتاب الأوّل كان وصفاً مقدَّماً في إطار معلومات عامّة، وأمّا نيّة المؤلّف ها هنا فمختلفة. فهو يريد أن يضع بتصرّف المسيحيّين موجَزاً عمليّاً يستطيعون فيه إيجاد الردّ المناسب على الاعتراضات المألوفة: المسلم يصوغ انتقاداته، ويجد المسيحيّ

نفسَه مُلزَماً ببرهنة إيمانه، ولا سيّما حين يتعلّق الأمر بكلمة الله في الحوار

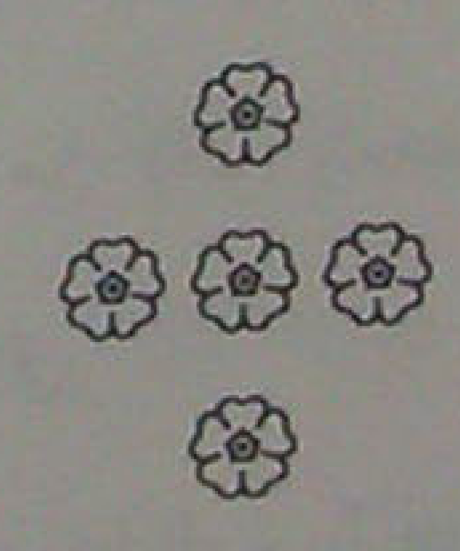
الرابع، وهي المرّة الأولى التي أخذ المسيحيّ فيها المبادرة في النقاش.

وتترك مجموعة الحوارات الصغيرة هذه تعليماً حيّاً يلبّي حاجات

الجماعة المسيحيّة في هذا المجال، وقد وزّعه لاهوتيّ قدّيس كان يعرف تماماً

فكر خصمه ونواياه. وهذا ما جعله ينبّه المسيحيَّ تجاه النوايا الماكرة التي

يجابهه بها مُحادثُه (الحوارات ١ (المقطع الثالث) و٢ و٤ و٩)...



﴿ الهرطقة المئة ﴾

مقدّمة

١- هنالك أيضاً ديانة الإسماعيليّين التي لا تزال تسيطر في أيّامنا وتستميل الشعوب معلِنةً مجيء المسيح الدجّال. إنّها تتّخذ أصلها من إسماعيل بن إبراهيم وهاجَر، ولهذا السبب يدعونهم الهاجَريّين أو الإسماعيليّين. كما يدعونهم أيضاً ساريّين، أي الذين جرّدتهم سارة [من الميراث]، فهاجَرُ قد أجابت الملاك في الواقع قائلة: "إنّ سارة قد طردتني مجرَّدة"[1].

ظهور الإسلام

لقد كانوا إذاً وثنيّين وكانوا يعبدون نجمة الصبح والزهرة التي كانوا يدعونها "خَبَار" في لغتهم على وجه التحديد، والتي تعني عظيمة.

وهكذا كانوا يزاولون عبادة الأوثان علناً حتى عهد هرقليوس.

ومنذ هذا العهد وحتى أيّامنا هذه، قام في ما بينهم نبيّ منتحِلٌ [النبوّة] اسمه

---

(١) أنظر تك٢١: ١٠-١٨.

محمّد، والذي قد أنشأ هرطقته الخاصّة بعد أن تعرّف بالصدفة على العهدين القديم والجديد، وبعد أن تحاور كما يبدو مع راهب آريوسي[٢]. وبعد أن أحرز لنفسه حظوة لدى الشعب عبر تظاهره بالتقوى، كان يلمّح بأنّ كتاباً آتياً من السماء قد أوحي به إليه من الله. وفي إنشائه لبعض المعتقدات المثيرة للضحك في كتابه، نقل إليهم هذه الطريقة في عبادة الله.

"اللاهوت" القرآني

٢- فهو يقول إنّه يوجد إله واحد خالق لكلّ الأشياء، وإنّه لم يولد ولم يلِد[٣]. والمسيح بحسب رأيه هو كلمة الله وروحه، بيد أنّه مخلوق وعبد وُلد دونما زرعٍ من مريم أختِ موسى وهارون[٤]. وهو يقول في الواقع إن كلمة الله وروحه قد دخلا في مريم وولدا يسوع الذي كان نبيّاً

(٢) يوضح قدّيسنا يوحنّا في بعض المخطوطات أنّ محمّداً قد التقى بأناس من اليهود ومن المسيحيّين؛ وهؤلاء كانوا نساطرة أو آريوسيّين، أي هراطقة على كلّ حال. وقد اقتبس عن اليهود فكرة الإله الواحد، وعن الآريوسيّين أنّ الكلمة والروح مخلوقان؛ أمّا النساطرة فأخذ عنهم فكرة عبادة الإنسان، هذه الهرطقة التي تقوم على إنكار ألوهيّة المسيح.

(٣) أنظر سورة الإخلاص ١،٣.

(٤) أنظر سورة النساء ١٧١-١٧٢.

وعبداً لله[٥].

وفي رأيه أنّ اليهود أرادوا تعليقه على الصليب بالرغم من الشريعة وأنهم لم يصلبوا سوى خياله بعد احتجازهم إيّاه. وهو يقول إنّ المسيح نفسه لم يحتمل الصليب ولا الموت، بل إنّ الله قد أخذه إلى جواره في السماء إذ كان يحبّه فعلاً[٦]. ويقول أيضاً بأنّ المسيح حالما صعد إلى السماوات سأله الله قائلاً: "أَهَل قلت يا يسوع بأنّك ابن الله وأنّك الله"؟ فيجيب يسوع حسب زعمه قائلاً: "تراءف عليّ يا رب ! أنت تعلم بأنّي لم أقُل ذلك وأنّي لا أستنكف من أن أكون عبدك. بيد أن الناس الكفّار كتبوا عنّي بأنّني صرّحت بذلك. لقد كذبوا بالنسبة إليّ وهم على ضلال [في أقوالهم]". ويقول بأنّ الله أجابه قائلاً : "إنّني أعلم بأنّك لم تقل هذا الكلام[٧].

---

(٥) أنظر سورة مريم ٣٠.

(٦) أنظر سورة آل عمران ٥٥ ؛سورة النساء ١٥٥-١٥٨.

(٧) أنظر سورة المائدة ١١٦.

٣- وسخافات أخرى عديدة مستحقّة الضحك قد أُخبر بها في هذا التصنيف المكتوب الذي يتبجّح [محمّد] بأنّه قد نزل عليه من الله. أمّا نحن فنقول: "من ذا الذي يشهد بأن الله أعطاه كتاباً، أو من أعلن من الأنبياء أنْ سيأتي نبيّ كهذا"؟ إنّنا نوقِعهم في الحَيرة عندما نقول لهم: لقد تسلّم موسى الشريعة على [جبل] سيناء[٨] على مرأى من جميع الشعب عندما ظهر [له] الله في السحاب والنار والظلام والعاصفة[٩]؛ وجميع الأنبياء منذ موسى قد أعلنوا واحدُهم تلو الآخر أنْ سيأتي المسيح، وأنّ المسيح هو الله، وأنّ ابن الله سيُقبل متجسّداً وأنّه سيُصلب ويموت ويقوم وأنّه هو الذي سيدين الأحياء والأموات. وعندما نقول [لهم]: " لِمَ لمْ يأتِ نبيّكم هكذا، مع آخرين يشهدون له؟ والله الذي أعطى الشريعة لموسى أمام عيون كلّ الشعب على جبل مدخّن، لِمَ لمْ يُرسل إلى نبيّكم أيضاً -وفي حضوركم- الكتابَ الذي تتحدّثون عنه بُغية توطيد يقينكم"؟ يجيبون بأنّ الله يفعل ما يشاء. فنقول إنّ هذا نعرفه نحن أيضاً، لكنّنا نسأل كيف أُوحي بالكتاب لنبيّكم. فيجيبون أنّ الكتاب نزل عليه في أثناء نومه. ولكيما نسخر

---

(٨) أنظر لا ٢٦:٤٦.

(٩) أنظر خر١٩:٩، ١٦-١٩؛ ٢٠:١٨؛ ٢٤: ١٥-١٧.

منهم نقول: "بما أنّه استلم الكتاب في أثناء نومه دونما إدراكٍ لهذا النشاط، فالمثل الشعبيّ من ثمّ يناسبه تماماً[10]".

ونسألهم من جديد: "كونه هو نفسه أمَرَكم في كتابكم ألاّ تفعلوا شيئاً وألاّ تقبلوا شيئاً بدون شهود، فلِمَ لمْ تسألوه: ابدأ أنت أوّلاً وبرهن [لنا] من خلال الشهود أنّك نبيّ وأنّك مُرسَل من الله، وما هو الكتاب الذي يشهد لصالحك"؟ فيلزمون الصمت من ثمّ خجلين. ونقول بحقٍّ لهم: "كونه لم يُبِح لكم الاقتران بامرأة ولا الشراء ولا الاقتناء بدون شهود، وكونكم لا تقبلون بأن تملكوا ولو حميراً أو ماشية بدون شاهد، فلا تتّخذون لكم من ثمّ نساءً وخيراتٍ وحميراً وباقي الأشياء إلاّ أمام شهود[11]. إذاً، قد قبلتم الإيمان والكتاب وحدهما بدون شاهد! لأنّ الذي نقل إليكم هذا الكتاب لا ضمانة له من أيّ جهة، كما ولا يُعرف أحدٌ شهد لصالحه من قبل. لا بل تسلّمه في أثناء نومه علاوةً على ذلك".

---

(١٠) قد يكون ذاك المثل الذي ورد في مجموعة زيغافينس والذي يقول: "من ينام يهذي ويرى في الغالب أحلاماً غريبة" (cité dans P.G 130,c1336,d). أمّا (P.G, 94,c767,note d) فيقترح قولاً لأفلاطون: "إنّكم تروون لي أحلاماً"، وبدون إيضاح آخر.

(١١) أنظر سورة البقرة ٢٨٢-٢٨٣.

إتّهام الإشراك في الدِّين

٤- إنّهم يدعوننا "مُشرِكِين"، لأنّنا- كما يقولون- نشيع إلى جانب الله شريكاً [له]، عندما نقول بأنّ المسيح هو ابن الله وأنّه الله[١٢]. فنقول نحن لهم: "هذا ما نقله إلينا الأنبياء والكتاب المقدّس؛ وأنتم أيضاً تقبلون بالأنبياء كما تجزِمون. وإذا ما قلنا نحن خطأً بأنّ المسيح هو ابن الله، فهم من علّمونا ذلك ومن نقلوه إلينا". ويقول بعضهم بأننا أضفنا ذلك على الأنبياء في تفسيرنا لأقوالهم بطريقة رمزيّة، وآخرون بأنّ العبرانيّين أغوَونا عن حقدٍ منهم في إسناد هذه النصوص إلى الأنبياء بغية تضليلنا.

فنقول لهم من جديد: "أنتم القائلون بأنّ المسيح هو كلمة الله وروحه،لِمَ تهينوننا "كمشرِكين"؟ فالكلمة والروح هما غير منفصلَين عمّن يكونان فيه بالطبيعة. وإذا ما كان [المسيح] في الله من ثمّ على أنّه كلمةُ الله، فيكون هو أيضاً الله بالتأكيد. أمّا إذا كان خارج الله، فيكون الله بدون كلمة وبدون روح حسب رأيكم، وهكذا تشوّهون الله في تحاشيكم إشراكُ أحد بالله. وكان الأحرى بكم فعلاً أن تقولوا بأنّ له شريكاً من أن تشوّهوه جاعلين إيّاه شبيهاً بحجر أو خشب أو شيء ما من الجوامد

---

(١٢) أنظر سورة المائدة ٧٢-٧٣.

[الفاقدة الحس]. ولأجل ذلك أنتم تنطقون بالأكاذيب عندما تدعوننا "مشرِكين"، ونحن ندعوكم بالمقابل "مشوِّهي" الله.

إتهام عبادة الأوثان

٥- ويتّهموننا أيضاً بعبادة الأوثان لأننا نسجد أمام الصليب الذي يستفظعونه. فنقول لهم عندئذٍ: "لماذا إذاً تحتكّون بحجر كعبتكم[١٣] هذا وتحبّون الحجر حتّى معانقته"؟ فيقول بعضهم إنّ إبراهيم قد جامَع هاجَر عليه، وآخرون إنّه قد ربط الناقة به عند تضحيته بإسحق. فنجيبهم قائلين: "لقد كان هنالك جبل مُدغِل وأشجار بحسب الكتاب، وقد قطع إبراهيم[حطباً] منه للمحرقة وحمّله لإسحق تاركاً الحمير مع الغُلامين إلى الوراء[١٤]؛ فلِمَ إذاً هذه الحماقات؟ إذ ما من حطب حرَجيّ في هذا الموضع فعلاً، والحمير لا تعبره". فيخجلون عندئذٍ، ومع ذلك يقولون بأنّه حجر إبراهيم. ثم نقول: "فليكن لإبراهيم كما تجزِمون بحماقة! إنّكم لا تخجلون

---

(١٣) أنظر سورة المائدة ٩٧.

(١٤) أنظر تك٢٢: ٣-٦.

من معانقتكم إيّاه لأنّ إبراهيم جامَع عليه امرأةً وحسب، أو لأنه ربط ب
الناقة، بل تلوموننا على سجودنا لصليب المسيح الذي أباد بأس الشياطين
وإغراءات إبليس"! ويُروى من جهة أخرى أن هذا الحجر هو رأس أفروديتي
[أو الزُهرة] التي كانوا يسجدون أمامها ويدعونها "خبَار". وحتّى أيامنا
هذه، لا يزال [عليه] أثرُ رسمٍ ظاهراً لمن يراقبون بدقّة.

النساء

٦- محمّد هذا، كما تكلّم كذلك أنشأ مؤلّفاتٍ سخيفةً وأعطى
اسماً لكلٍّ منها. وهكذا [فعل] بسورة النساء[١٥] التي قضى فيها لكلّ أحد
جليّاً بأن يتّخذ أربع نساء وألف خليلة إن أمكن، وبقدْر ما تُخضع له يدُهُ
منهنّ علاوةً على النساء الأربع[١٦]؛ وأنّ باستطاعته أن يطلّق [امرأة] واحدة
إذا ما أراد ذلك ليتّخذ له أخرى[١٧]. ولقد سنّ [محمّد] هذا القانون للسبب
التالي: فقد كان لمحمّد عشيرٌ اسمه زيد. وكان لهذا الرجل امرأة جميلة شُغف
بها محمّد. وعندما كانا جالسين معاً قال محمّد: يا صاحِ،لقد أعطاني الله

---

(١٥) هي السورة الرابعة في القرآن.

(١٦) أنظر سورة النساء ٣؛ سورة الأحزاب ٥١.

(١٧) أنظر سورة النساء ٢٠.

أمراً باتخاذ امرأتك لي. فأجاب زيد: إنك رسول فافعل كما قال لك الله واتخذ لك امرأتي. وحتى نباشر القصة منذ بدايتها بأكثر دقة، قال له [محمد]: لقد أعطاني الله أمراً بأن تطلق امرأتك؛ فطلقها. وبعد بضعة أيام قال له: لقد أعطاني الله أمراً بأن أتخذها لنفسي. وبعد أن اتخذها وزنى معها في هذه الحال، أصدر هذا القانون: من يرغب في أن يطلق امرأته فليفعل؛ أما إذا عاد إليها بعد تطليقها فليتزوجها آخر، إذ ليس مسوّغاً في الواقع أن يتخذها ما لم يتزوجها آخر[18] [قبل ذلك]. وإذا كان من طلقها أخاً، فليتزوجها أخوه إن رغب في ذلك. وفي السورة عينها [التي يقول فيها هكذا] يُسدي نصائح من هذا النوع: "احرث الأرض التي أعطاك إياها الله وضعْ فيها كلَّ اهتمامك، افعل هذا، وبهذه الطريقة[19]" - حتى لا نتفوه بكلام بذيء على غراره.

ناقة الله

٧- توجد أيضاً السورة [التي تتحدث عن] ناقة الله. فبشأنها يقول إن ناقة أرسلها الله وإنها شربت النهر كله فلم تستطع من ثم العبور في ما

(١٨) أنظر سورة البقرة ٢٣٠.

(١٩) أنظر سورة البقرة ٢٢٣.

بين جبلَين لانعدام المسافة الكافية لذلك. وكان ثمّة قومٌ في ذاك الموقع كما يقول[٢٠]: وفي أحد الأيام شرب هو من الماء ثمّ تبعته الناقة. وعندما شربت الماء صارت تغذّيهم باللبن بدلاً من الماء. أمّا هؤلاء الرجال فكانوا خبثاء في رأيه إذ قاموا وقتلوا الناقة. والحال أنْ كان لديها ناقة صغيرة صرخت إلى الله بعد موت والدتها بحسب زعمه والله أخذها إلى جواره. فنقول نحن لهم: "من أين أتت هذه الناقة"؟ يقولون من الله. فنقول: "ألعلّ جملاً تزاوج معها"؟ يقولون لا. فنقول: "كيف أنجبت صغيرتها إذاً؟ فإنّا نرى فعلاً بأنّ ناقتكم لم يكن لها والد ولا والدة ولا قرابة، وأنّه حصل لها مكروه بعد أن أنجبت صغيرتها. لكن الذّكر لا يظهر والناقة الصغيرة رُفعت. فنبيّكم الذي تكلّم إليه الله كما تقولون، لماذا لم يُبلَّغ عندئذٍ بشأن هذه الناقة، أين كانت ترعى ومن هم الذين كانوا يحلبونها ليشربوا اللبن؟ أَوَ قُتلت ربّما بالتقائها هي أيضاً مع أناس خبثاء نظير والدتها، أم سبقتكم إلى الجنّة ومنها ينبع نهرُ اللبن الذي لكم والذي تتفوّهون بالحماقات في شأنه؟ فإنّكم تقولون فعلاً بأنّ ثلاثة أنهار تجري في جنّتكم: [واحد] من الماء، [وآخر] من الخمرة، [وآخر] من اللبن[٢١]. وإذا ما كانت الناقة التي سبقتكم هي خارج الجنّة،

---

(٢٠) هم قوم ثمود. أنظر سورة القمر ٢٣-٣٢.

(٢١) أنظر سورة محمّد ١٥.

فإمّا أنّها قد جفت من الجوع والعطش بالتأكيد، وإمّا أنّ آخرين يستفيدون من لبنها؛ وعبثاً يتكبّر نبيّكم من ثمّ بأنّه كان على علاقة مع الله في حين أنّ سرّ الناقة لم يُكشف له. أمّا إذا كانت في الجنّة، فهي تشرب الماء من جديد وأنتم تجفّون من العطش وسط جنّة النعيم. وإذا رغبتم في خمرة النهر الذي يمرّ على مقربة من [نهر الماء] شاربين إيّاه صِرفاً لانعدام الماء إذ تكون الناقة قد شربت كلّ شيء- فَلَسوف تلتهبون، والسُّكْر يجعلكم تهذون وترقدون. وهكذا تنسون مُتَع الجنّة من ثمّ وقد أثقل النومُ رأسَكم وأصبحتم سُكارى من الخمرة بالكلّية. فكيف لم يفكّر نبيّكم إذاً بهذه الحوادث المتوقّعة حتى لا تصيبكم في جنّة النعيم، وكيف أنّه لم يهتمّ بالناقة وبمعرفة مقرّ سكناها الآن؟ بل لِمْ تسألوه عن ذلك حتّى عندما أعلمكم عن الأنهار الثلاثة بالتفصيل في الحُلم. أمّا أنتم، فإنّنا نعلن لكم بوضوح أن ناقتكم الخارقة قد سبقتكم إلى نفوس الحمير، إلى حيث أنتم موشِكون على الولوج بدوركم كالبهائم[22].

---

(٢٢) في استعماله عبارات لاذعة كهذه تجاه المسلمين، كان في نيّة قدّيسنا أن يصوّر لهم بواقعيّة ما ستؤول إليه حالُهم إذا ما أصرّوا على المَضيّ قُدُماً في مزاعمهم المنحرفة. وهذا لا يعني أنّه يدينهم بأحكامٍ جائرة، حاشا؛ بل على العكس من ذلك، إذ بوضْعه نُصب أعينهم هذه الحالة الزريّة، يحرّضهم على اجتنابها بغية عدم السقوط في الخطيئة التي تُحدِر الإنسان إلى مستوى البهائم وتُزيغه عن الهدف الحقيقيّ الذي دُعي إليه. فلا نشكّنّ إذاً في غيرة قدّيسنا على خلاص

هنا الظلمة البَرّانيّة[٢٣]، والعذاب الأبدي، والنار التي لا تنطفىء[٢٤]، والدود الذي لا ينام، وشياطين جهنّم".

سورة المائدة

٨- قال محمّد أيضاً سورة المائدة[٢٥]. وفيها يقول إنّ المسيح طلب إلى الله مائدةً فمُنحت له[٢٦]. وقد أجابه الله بحسب زعمه قائلاً: "لقد منحتك وأخصاءَك مائدةً لا يعتريها فساد".

سورة البقرة

وقال أيضاً سورة البقرة[٢٧] وعبارات أخرى مثيرة للضحك، والتي أعتقد أنّه من الواجب إهمالها بسبب كثرتها.

المسلمين، ولا في صحّة ما قاله ليرتدعوا عن ضلالهم ويخلُصوا في معرفة الحقّ؛ فهذا هو موقف المحبّ الصادق في محبّته العطوف.

(٢٣) أنظر متى ٨:١٢.

(٢٤) أنظر مر ٩:٤٨.

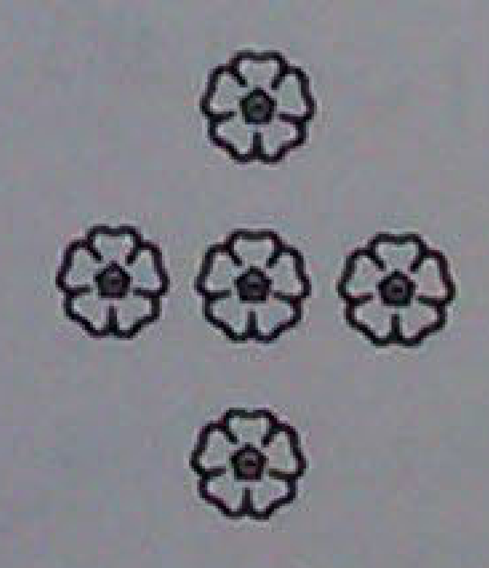
(٢٥) هي السورة الخامسة في القرآن.

(٢٦) أنظر سورة المائدة ١١٤-١١٥.

(٢٧) هي السورة الثانية في القرآن.

ممارسات وموانع

وقد أوصاهم بأن يختتنوا، وكذلك نساءهم. وأمرهم ألاّ يحفظوا السبت[٢٨] وألاّ يعتمدوا، مانحاً لهم أن يأكلوا بعض الأطعمة المحرَّمة من الشريعة، وأن يمتنعوا عن أطعمة أخرى[٢٩]. وقد حرّم عليهم أيضاً شرب الخمرة على الإطلاق[٣٠].



(٢٨) أنظر سورة النساء ٤٧.

(٢٩) أنظر سورة المائدة ٣-٤.

(٣٠) أنظر سورة البقرة ٢١٩؛ سورة المائدة ٩٠.

﴿ مناقشة بين مُسلم ومسيحيّ ﴾

حرّية الإنسان

١- سأل المسلمُ المسيحيَّ قائلاً: من هو خالق الخير والشرّ برأيك؟

المسيحيّ: نحن نقول بأنّ الله وحده خالق كلّ الخيرات، لكنّه ليس خالقَ الشرّ.

أجابه المسلم قائلاً: من هو [إذاً] خالق الشرّ برأيك؟

المسيحيّ: أكيداً هو ذاك الذي [صار] شيطاناً بملء رضاه، وكذلك نحن البشر.

المسلم: لأجل أيّ سبب؟

المسيحيّ: بمقتضى حرّية الاختيار.

المسلم: ماذا إذاً؟ أوَ تملك حرّية الاختيار، ويمكنك من ثمّ أن تفعلَ ما تريده وتفعلُه؟

المسيحيّ: لقد خلقني الله حرّاً في مجالين اثنين وحسب.

المسلم: أيّهما؟

المسيحيّ: فعل الشرّ وفعل الخير، ما هو صالح وما هو سيّء. وإذا ما فعلت الشرّ بالتالي فشريعة الله تعاقبني، أمّا إذا كنت أفعل الخير فلا أخشى الشريعة، بل أُكافَأُ من الله وأنال رحمته على العكس من ذلك. وبالطريقة عينها خلق اللهُ الشيطانَ حرّاً قبل الإنسان، لكنّه خطىء فطرده الله من حالته الخاصّة. وقد تعترض عليّ قائلاً: "ما الذي تدعوه أشياء حسنة وأشياء سيّئة؟ ها هي ذي الشمس والقمر والنجوم التي هي أشياء حسنة؛ فاصنعْ لك واحدةً منها"! ما كلّمتك به آنفاً لم يكن بهذا المعنى، فإنّني أفعل الخير والشرّ اللذين بمقدور الإنسان أن يفعلهما. مثلاً، الخير هو تمجيد الله والصلاة والإحسان وما يشابهها. أمّا الشرّ فهو الزنى والسرقة وكلّ عمل مماثل لهما.

الله عادل

فإذا كان الخير والشرّ من الله كما تدّعي، فيبدو الله من ثمّ ظالماً؛ وهو ليس كذلك. في الواقع، إذا كان الله هو الذي أوصى الزاني بالزنى والسارق بالسرقة والقاتل بالقتل كما تدّعي، فهؤلاء الرجال يستحقّون من ثمّ المكافأة على طاعتهم لمشيئته. وهذا يبرهن أنّ مُشترِعيك كاذبون وأنّ

كُتبك أكاذيب، لأنّهم يأمرون بتشويه الزاني والسارق[1] اللذين لم يفعلا إلاّ الطاعة لمشيئة الله، وبقتل القاتل[1] الذي كان ينبغي إكرامه لأنّه طبّق مشيئة الله!

الخلق والإنجاب

المسلم: من الذي يكوّن الأجِنّة في أحشاء النساء؟- المسلمون يقدّمون لنا هذا الاعتراض الصعب جدّاً لابتغائهم أن يثبتوا بأنّ الله هو خالق الشرّ. فإذا ما أجبت بأنّ الله هو الذي يكوّن الجنين في حشا النساء، سيقول المسلم: "ها إنّ الله يساهم في الزنى والفسق"!

فأجاب المسيحيّ على ذلك قائلاً: نحن لا نجد قطْعاً ما يثبت في الكتاب المقدّس بأنّ الله كوّن أو خلق أيّ شيء بعد الأسبوع الأوّل لخلق العالم[2]. وإذا كنت تعترض على ذلك فأظهر لي خليقة ما أو صُنعة ما خلقها الله بعد [هذا] الأسبوع الأوّل. ولكنّك لن تقدر على ذلك لأنّ كلّ الكائنات المنظورة قد خُلقت في أثناء الأسبوع الأوّل. وهكذا كوّن الله الإنسانَ إبّان هذا الأسبوع الأوّل وأوصاه بأن يلد وأن يكون مولوداً، عندما

---

(١) أنظر سورة النساء ٩٣؛ سورة المائدة ٣٨؛ سورة النور ٢.

(٢) أنظر تك ٢:١.

قال: "أثمروا واكثروا واملأوا الأرض"[٣]. وبما أن الإنسان كان كائناً حيّاً يملك زرعاً حيّاً، فهذا الزرع قد نبت في امرأته الخاصّة. وهكذا يلد الإنسانُ الإنسانَ كما يقول الكتاب المقدّس: "وولد آدم شيثاً، وشيث ولد أنوش، وأنوش ولد قينان، وقينان ولد مهللئيل، ومهللئيل ولد يارد، ويارد ولد أخنوخ"[٤]. لكنّه لا يقول بأنّ الله كوَّن شيثاً أو أخنوخ أو أيّ أحد آخر. ومن هنا نعلم بأنّ آدم كان الوحيد الذي كوّنه الله حتماً، أمّا أعقابه فقد وُلدوا، وهم يلِدون إلى الآن. وهكذا حُفظ العالم بنعمة الله، لأنّ كلّ نبات وكلّ عشب يُنتِج ويُنتَج عنه بموجِب أمر الله منذ ذلك الحين، إذ قال الله: "لتُنبتِ الأرض عشباً وبقلاً"[٥]. وبناءً على أمره نمَت الأشجار؛ وكلّ أنواع النباتات والأعشاب لها في ذاتها القدرة على التكاثر إذ هو حيٌّ بذارُ كلّ نبات وكلّ عشب. فإذا ما سقطت من ذاتها على الأرض، أو إذا ما غُرست فيها، فهي تنبت ثانيةً. لم يكوِّنها أحد، بل هي تُطيع أمر الله منذ البدء. وهكذا، كوني أمتلك حرّية اختياري في النطاق المذكور آنفاً وهو وحده كما سبق فقلت، فإذا ما أودعت زرعي سواء في امرأتي الخاصّة أو

---

(٣) تك ١:٢٨.

(٤) تك ٥:٣-٢٠.

(٥) تك ١:١١.

في امرأة أخرى باستعمالي حرّيتي، فهذا الزرع ينمو مُطيعاً أمر الله منذ البدء وليس لأنّه يكوّن ويعمل كلّ يوم والآن أيضاً؛ "فالله قد صنع السماء والأرض وكلّ الكون في الأيّام الستّة من الأسبوع الأوّل، وفي اليوم السابع استراح من كلّ أعماله التي عملها"[٦]، كما يؤكّد لي الكتاب المقدّس.

الآب يلد الابن

المسلم: وكيف يحصل أن يقول الله لإرميا: "قبلما كوّنتك في البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدّستك"[٧]؟

المسيحيّ: منذ آدم، ومن بعده، كوّن الله في حشا كلّ إنسان المقدرة على نقل الحياة والولادة. في الواقع، آدم الذي كان لديه شيءٌ في حشاه قد وَلَده، والإبن وَلَد ويلِد حتّى أيّامنا. أما بشأن هذه العبارة: "من الرحم قدّستك"، فتصوّرْ ذاك [الرحم] الذي ولد أبناء الله في الحقيقة حسب شهادة الإنجيل المقدّس القائل: "لأنّ جميع الذين قبلوه آتاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله، هم الذين آمنوا باسمه، الذين لم يولدوا من دم ولا

---

(٦) أنظر تك ٢: ١-٣.

(٧) إرم ١: ٥.

من مشيئة رجل ولا من مشيئة جسد، بل من الله"[8]- بالمعموديّة.

المعموديّة والخلاص

٢- المُعاكِس: إذاً، هل كانت المعموديّة قبل المسيح؟ فإرميا قد وُلد قبل المسيح في الواقع.

المسيحيّ: كانت [موجودة] حسب شهادة الرسول القدّيس الذي يؤكّد بأنّ البعض قد اعتمدوا في الغمام وآخرين في البحر[9]. ويقول الربّ في الأناجيل: "ليس أحد يقدر أن يدخل ملكوت السماوات ما لم يولدْ من الماء والروح"[10]. فإبراهيم وإسحق ويعقوب وكلّ القدّيسين الآخرين الذين سبقوا المسيح والذين دخلوا ملكوت السماوات [بالمسيح] قد اعتمدوا من ثمّ آنفاً، لأنّهم لو لم يعتمدوا لما خلُصوا حسب شهادة المسيح. والروح القدس يشهد بذلك عندما يقول: "زاغ الأشرار من الرحم"[11]، أي رحم المعموديّة. ولذلك نحن نؤكّد بأنّ جميع من خلُصوا، أو من يخلُصون، إنّما خلُصوا ويخلُصون بالمعموديّة بنعمة الله.

---

(٨) يو ١:١٢-١٣.

(٩) أنظر ١كور١٠ :١-٢.

(١٠) يو ٣:٥.

(١١) مز ٥٧:٣.

المشيئة والسَّماح

٣- المسلم: ماذا ترى في ذاك الذي يعمل مشيئة إلهه، أَستقول عنه إنّه صالح أم شرير؟

فيقول المسيحيّ مُدرِكاً حيلة [خصمه]: إنّني أعلم ما الذي تريد بلوغه [في هذا السؤال].

المسلم: إشرح لي ذلك.

المسيحيّ: تريد أن تقول لي : "هل تألّم المسيح بإرادته أم لا"؟ فإذا قلت لك: "قد تألّم بإرادته"، تقول لي: "إذاً، امضِ واسجدْ لليهود لأنّهم تمّموا مشيئة إلهك".

المسلم: هذا ما كنت أريد أن أقوله لك. فإذا استطعت أن تجيبني فأجِب!

المسيحيّ:إنّ ما تسمّيه أنت "مشيئة" أسمّيه أنا سماحاً وحِلماً.

المسلم: كيف يمكنك أن تُثبت لي ذلك؟

المسيحيّ: من خلال الوقائع. فعندما نكون أنت وأنا جالسين أو واقفين، أَوَ يستطيع أحدنا أن ينهض أو يتحرّك بدون مشيئة الله وسيادته؟

المسلم: لا.

المسيحيّ: وعندما يقول الله: "لا تسرق، لا تزنِ، لا تقتل"[١٢]، هل يريد من ثمّ أن يرانا ونحن نسرق ونزني ونقتل؟

المسلم: لا، لأنه لو كان يريد ذلك لما قال: "لاتسرق، لا تزنِ، لا تقتل"!

المسيحيّ: الحمد لله! لأنّك توافقني بقولك ما أريد أنا قوله. ها إنّك قد وافقتني بأن ما من أحد منّا يستطيع أن ينهض ولا أن يتحرّك طالما أنّ الله لا يريد ذلك، وبأنّ الله يحرّم علينا السرقة والزنى من جهة أخرى. فإذا ما نهضتُ الآن ومضيت لكي أسرق أو لكي أزني، فماذا تدعو ذلك: مشيئة الله أم قَبولاً وسماحاً وحِلماً [منه]؟

٤- إذ أدرك المسلم ذلك قال متعجّباً: حقّاً، إنّ الأمر لَهُوَ كذلك.

المسيحيّ: افهمْ هذا أيضاً؛ في حين أنّ الله كان قادراً على معاقبتي، [تراه] يمتنع عن ذلك الآن، أي أنه حليم تجاه خطيئتي. أمّا عندما يريد هو، وإذا لم أُتب أنا عنها، فهو يعاقبني؛ وهكذا تصرّف مع اليهود. ففي الواقع، ما أن مضت بضع سنوات [على قتلهم المسيح] حتّى أثار عليهم تيطسَ وأُويسباسيانوسَ [الإمبراطورَين الرومانيَّين] واليونانيّين وحَطّ تشامخهم.

---

(١٢) أنظر متى١٩: ١٨.

المسيح وا لله

٥- إذا ما سألك المسلم قائلاً: من هو المسيح برأيك؟ قلْ له دونما خشية من الخطأ في ذلك: "إنّه كلمة ا لله، لأنّ الكتاب المقدّس يدعوه كلمة ا لله[١٣]، وحكمته[١٤]، وساعده[١٥] وقدرته، وألقاباً أخرى عديدة مشابهة، إذ إنّ له ألقاباً عديدة في الواقع". واسألْه أنت بدورك وقلْ له: "ماذا يدعى المسيح في كتابكم"؟ فإذا ما أراد أن يسألك في موضوع آخر تهرُّباً [من الإجابة]، فلا تُجبْه قبل أن يجيبك عن سؤالك. وهكذا سيكون مُرغَماً على إجابتك حتماً، [فيقول]: "في كتابي، يدعى المسيح روح ا لله وكلمته". عندئذٍ قلْ له من جديد: "روح ا لله والكلمة بحسب كتابك، هل هما غير مخلوقَين أم مخلوقان"؟ فإذا قال لك إنّهما غير مخلوقَين، قل له: "ها إنّك توافقني [في الرأي]، لأنّ من لم يخلقْه أحدٌ بل من يخلق [كلّ الأشياء]، إنما هو ا لله". أمّا إذا تجرّأ على القول بدون تحفّظٍ إنّهما مخلوقان، فقل له: "من خلق إذاً روحَ ا لله وكلمتَه"؟ فإذا ما ارتبك وقال إنّ ا لله هو الذي خلقهما، فقل له: "لقد قلت منذ قليل إنّهما غير مخلوقين، والآن تقول إنّ ا لله

---

(١٣) أنظر يو ١:١.

(١٤) أنظر ١كور١:٢٤.

(١٥) أنظر مز ٩٧:١؛ لو١:٥١.

خلقهما! إذاً، لو قلتُ لك ذلك بعينه، لَقُلت لي: لقد نقضتَ شهادتك ومهما تقول من الآن فصاعداً، فلن أعتقد به. وبالرغم من كلّ شيء، أسألك هذا [السؤال] أيضاً: قبل أن يُخلق الروح والكلمة، هل كان الله بدون روحٍ وبدون كلمة"؟ وعندها يهرب منك إذ ما من شيء عنده ليجيبك به. في الواقع، إنّ الذين يقولون أشياء مماثِلة يُعتبرون هراطقةً عند المسلمين ويُرفَضون ويُبغَضون. وإذا أردت أن تمشي به لبقيّة المسلمين، فسيخاف منك جدّاً.

أقوال الله وأفعاله

٦- عندما يسألك المسلم قائلاً: "أقوال الله، هل هي مخلوقة أم غير مخلوقة"؟-المسلمون يطرحون علينا هذا السؤال الصعب جدّاً حتّى يبرهنوا أنّ "كلمة الله" مخلوق، وهذا خطأ- فإذا قلت: "مخلوقة"، يقول لك: "ها إنّك تثبت بأنّ كلمة الله مخلوق". أمّا إذا قلت: "غير مخلوقة"، يقول: "كلّ أقوال الله الموجودة إنّما هي غير مخلوقة، ولكنّها ليست آلهةً مع ذلك. ها إنّك توافقني على أنّ المسيح الذي هو كلمة الله ليس هو الله". لأجل هذا السبب لن تجيبه بأنّها مخلوقةٌ كما ولن تجيبه بأنّها غير مخلوقة، بل ستجيبه بهذا: "إنّي أعترف بأنّ في الله "كلمةً" واحدةً أقنوميّةً غيرَ مخلوقة، كما

اعترفت أنت بذلك. ولكنّني لا أدعو كتابي بجملته أقوالاً [أو كلمات] إلهيّة، بل أفعالاً [أو إبلاغات] إلهيّة". فإذا قال لك المسلم: "كيف حصل [إذاً] أن قال داود: "كلام الربّ كلام نقيّ" [16]، ولم يقل: "فِعل الربّ فعل نقيّ"؟ فقلْ له إنّ النبيّ قد تكلّم بالمعنى المجازيّ لا بالمعنى الحقيقي.

المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ

فإذا قال لك: "ماذا تقصد بالمعنى المجازي والمعنى الحقيقي؟ فقلْ له: "المعنى الحقيقي هو البيِّنة المؤكَّدة لشيء ما، أمّا المعنى المجازي فبيِّنة غير مؤكَّدة. وإذا قال لك المسلم: "أَوَ يمكن للنبيّ أن يستعمل بيِّنة غير مؤكَّدة"؟ فقل له :"من عادة الأنبياء أن يشخِّصوا الجوامد ناسبين إليها عيوناً وأفواهاً؛ مثلاً: "البحر رأى فهرب" [17]. ليس للبحر عيون في الواقع، لأنّه من الجوامد. ويسأله النبيّ من جديد على أنّه كائن حيّ فيقول: "ما لكَ أيّها البحر قد هربت" [18] إلخ.. وأيضاً: "يأكل سيفي لحماً" [19]، يقول الكتاب. والحال أن [فِعل] الأكل يُطبَّق على فمٍ يأكل ويشرب، وإذا استطاع سيف

---

(16) مز12:7.

(17) مز114:3.

(18) مز114:5.

(19) تث32:42.

أن يقطع [شيئاً ما] فلا يستطيع أن يشرب. وهكذا سمّى [النبي] الأفعال كلاماً بالمعنى المجازيّ، في حين أنّها لم تكن أقوالاً بالضبط بل أفعالاً".

التجسّد

٧- وإذا قال لك المسلم: "كيف نزل الله في حشا امرأة"؟ فقل له: "لنستعمل كتابك وكتابي [في هذا الشأن]! كتابك يقول بأنّ الله قد طهّر العذراء مريم أكثر من كلّ جسد نسائي وأنّ روح الله والكلمة قد نزلا فيها[٢٠]. وإنجيلي يقول: "الروح القدس يأتي عليك وقدرة العليّ تظلّلك"[٢١]. وهكذا يتحدّث الاثنان باللهجة عينها و[يتضمّنان] الفحوى عينها. ولكن اعلمْ أنّ الكتاب [المقدّس] يتكلّم عن صعود الله ونزوله بالمعنى المجازي لا بالمعنى الحقيقي نظراً إلى طبيعتنا الخاصّة. لأنّ الصعود والنزول إنّما يُستعملان للجسد بالمعنى الحقيقي حسب الفلاسفة، في حين أنّ الله يحوي كلّ شيء ولا يحويه أيّ مكان. وقد قال أحد الأنبياء في الواقع: "مَن كال بكفّه مياه البحر وقاس السماوات بالشِبر وكال بيده كلّ

(٢٠) أنظر سورة آل عمران ٤٢؛ سورة مريم ١٦-٢١.

(٢١) لو ١:٣٥.

البرّ"[22]. وباختصار، إنّ كلّ المياه بِيد الله وكلّ السماء بشِبره وكلّ الأرض في قبضته. فكيف يمكنه أن ينزل ويصعد ذاك الذي يحوي كلّ الأشياء في يده"؟

الإتّحاد الأقنوميّ

٨- إذا سألك المسلم قائلاً: "لو كان المسيحُ الله [كما تقول أنت]، فكيف كان يأكل ويشرب وينام إلخ.."؟ فقلْ له: "إنّ كلمة الله الأزليَّ الذي خلق كلّ الأشياء حسب شهادة كتابي وكتابك، قد خلَق [له] من جسد العذراء القدّيسة مريم إنساناً كاملاً ذا نفس عاقلة. وهذا هو الذي أكل وشرب ونام؛ أمّا كلمة الله فلم يأكل ولم يشرب ولم يَنَم بالمقابل، ولم يُصلب ولم يَمُت. بل إنّ جسده المقدّس الذي اتّخذه من العذراء القدّيسة هو الذي صُلب. واعلم أنّ المسيح معروف بطبيعتين، ولكنْ في أقنوم واحد. واحد هو كلمةُ الله الأزليُّ فعلاً، في الشخص لا في الطبيعة، وحتّى بعد أن اتّخذ جسداً؛ لأنّ شخصاً رابعاً لم ينضمّ إلى الثالوث بعد اتّحاد [الكلمة] غير الموصوف بالجسد".

---

(٢٢) أنظر أشع ٤٠: ١٢.

الرُّقاد

٩- وإذا ما سألك المسلم قائلاً: "تلك التي تدعوها أنت والدة الإله، هل هي ميتة أم حيّة"؟ فقلْ له متيقّناً ممّا يثبته الكتاب: "إنّها ليست ميتة؛ فالكتاب يقول فعلاً في هذا الشأن: "لقد وافاها هي أيضاً موتُ البشر الطبيعيّ، ولكنْ دونما إرغامٍ أو إخضاعٍ، كما بالنسبة إلينا"[٢٣]- فهي أبعد من أن ينالها ذلك!- بل كما قيل: "نام الإنسان الأوّل فانتُزع الضِلع منه"[٢٤].

الخليقة قد كَمُلت

١٠- وإذا قال لك المسلم: "ها قد تلقيتُ ضربةً في موضعٍ ما من جسدي وبعد أن ضُربت أُصيب جسدي بجرح، وفي هذا الجرح تكوّنت دودة. فمن الذي كوّنها"؟ فقلْ له كما سبق وفعلنا[٢٥]، بأنّنا لا نجد شيئاً

---

(٢٣) هذه الشاهدة ليست كتابيّة بل هي مقتبَسة من عظة في الرقاد للقدّيس أندراوس الكريتي. والأوضح منها هو النصّ الوارد عند ثيوذورس أبي قرّة والذي يقول: إن ضلع الإنسان الأوّل قد انتُزع منه في أثناء رقاده؛ وبالطريقة عينها أودعت والدةُ الإله نفسَها الكليّةَ القداسةِ في يَدَيِ الله كما في رقاد.

(٢٤) أنظر تك ٢:٢١.

(٢٥) أنظر المقطع المتعلّق بالخلق والإنجاب في هذه المناقشة (رقم ١).

كوّنه الله أو كائناً من كان، حالما مرّ الأسبوع الأوّل لخلق العالم. بل ما يحصل إنّما يحصل بأمر الله كما أوصى به في الأسبوع الأوّل. وبعد العِصيان في الواقع، حُكم على الأرض بأن تُنبت شوكاً وحسكاً؛ وهي لا تزال حتّى الآن تنبت شوكاً وحسكاً[٢٦] دون أن تُزرع. في ذلك الحين أيضاً تعذّب جسدُنا، وهو لا يزال حتى أيّامنا [هذه] يُظهر القمل والديدان.

المسيح أعظم من يوحنّا المعمدان

١١- ويسأل المسلمُ المسيحيَّ أيضاً فيقول: "من هو الأعظم في رأيك، الذي يقدِّس أم الذي تقدَّس"؟ وفي إدراكه عدوانيّة هذا السؤال، يقول المسيحيّ: "إنني أعلم ما تعنيه بقولك هذا".

المسلم: إذاً، إذا كنت تعلم ذلك فأعلِنْه لي!

فيقول المسيحيّ: لو قلت لك إنّ من يقدِّس هو الأعظم ممّن تقدَّس، لقلتَ لي: امضِ [إذاً] واسجدْ ليوحنّا المَعمَدان، لأنّه عمَّد مسيحَك وقدّسه!

المسلم: هوذا ما كنت مُزمِعاً على قوله لك.

فيقول المسيحيّ للمسلم بإلغاز: عندما تذهب إلى الحمّام مصطحِباً

---

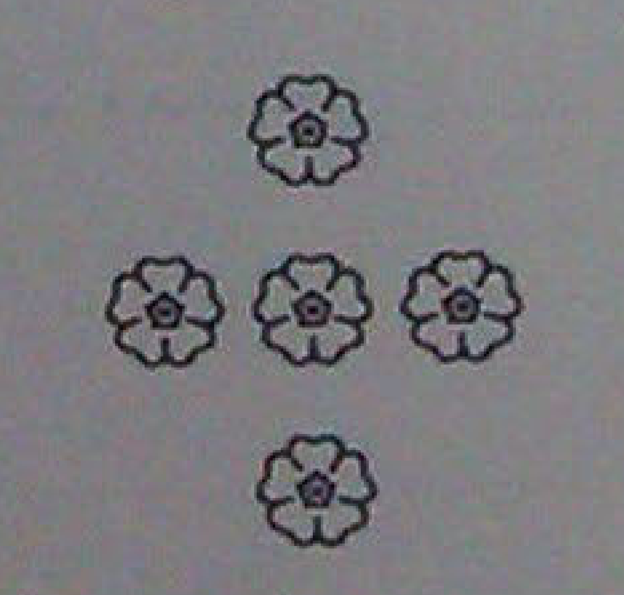
(٢٦) أنظر تك ١٨:٣.

عبدك ليغسلك وينقّيك، من يكون الأعظم في رأيك: أهذا العبد البائس المُشترى بالفضّة أم أنت سيّده الذي تنقّيت به؟

فيقول المسلم للمسيحي: أقول إنّي أنا الشاريَ أعظمُ ممّن قد اشتريتهُ.

فيجيب المسيحي: أشكرُ الله! ألا اعلمْ كذلك أن يوحنّا بالنسبة إليّ كان عبداً أيضاً وخادماً للمسيح في الأردنّ، حيث اعتمد مخلّصي وحطّم رؤوس الشياطين الأشرار المقيمين فيه.

وهكذا ينذهل المسلم ويتشوّش إذ لم يبقى في حَوزته ما يجيب به المسيحيَّ، فينسحب [من المناقشة] مُفتقِراً إلى الاعتراضات.



الفهرس

صفحة

صفحة